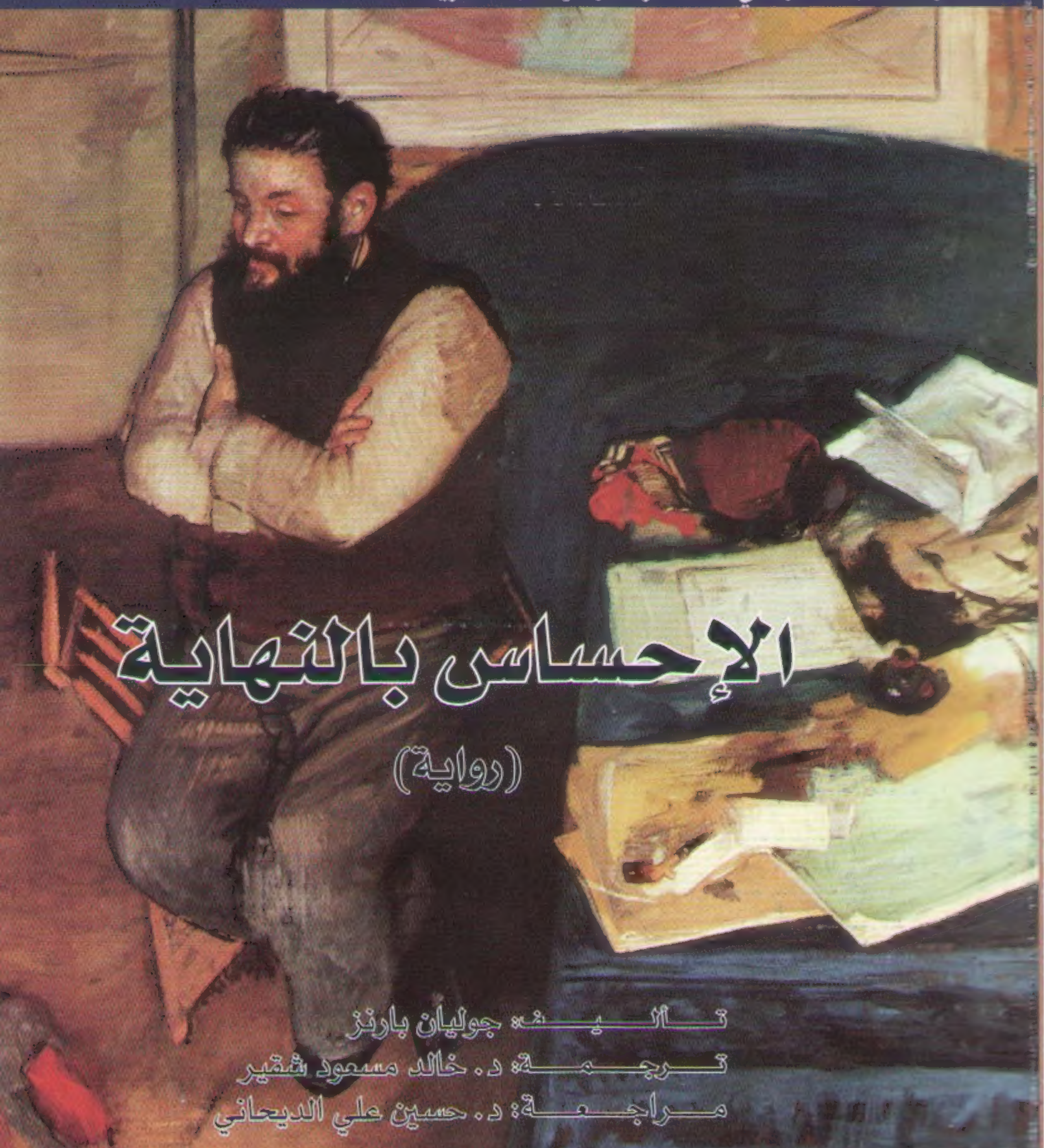
المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

389

إبداعات عالمية

تصدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت



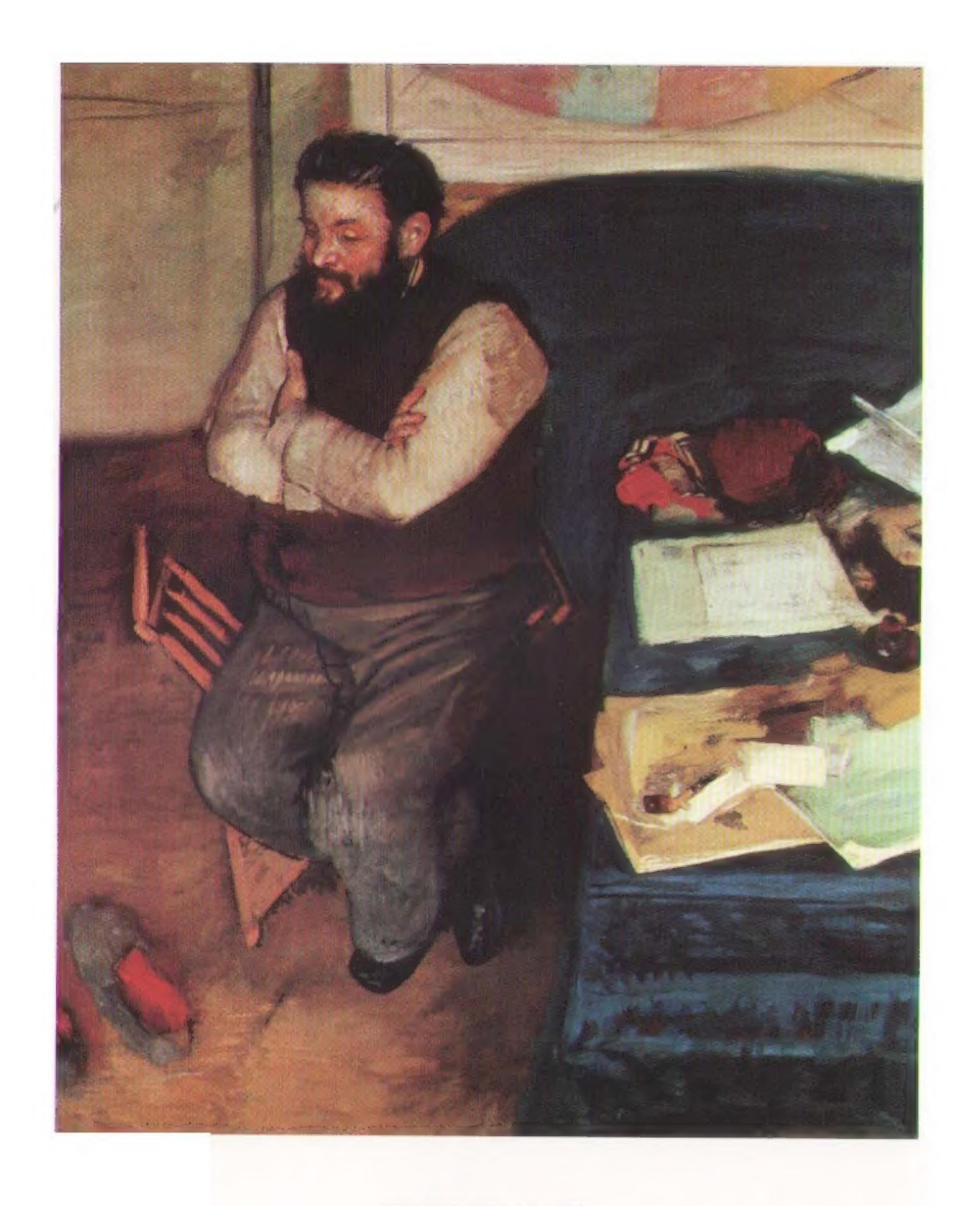
الإحساس بالنهاية

(رواية)

تــألـيـف: جوليان بارنز

تــرجـمـة: د. خالد مسعود شقير

مــراجـعـة: د. حسين علي الديحاني



DEGAS

DANIEL CATTON RICH

DIEGO MARTELLI

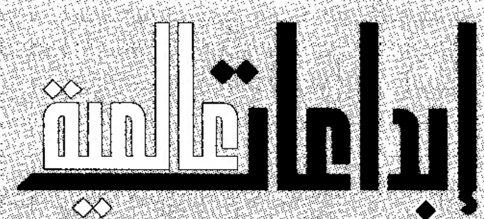


الإحساس بالنهاية

تـــألـــيـــف: جوليان بارنز

تـــرجـــمـــة: د. خالد مسعود شقير

مـــراجـــعـــة: د. حسين علي الديحاني



تصدر كل شهرين عن

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

www.kuwaitculture.org

:E.Mail

ebdaat_alamia@yahoo.com

سعر النسخة

الكويت ودول الخليج	500 فلس
الدول العربية الأخرى	ما يعادل دولارا أمريكيا
خارج الوطن العربي	دولاران أمريكيان

الاشتراكات

دولة الكويت

للأفراد	10د.ك
للمؤسسات	20 د.ك

دول الخليج

للأفراد	12د.ك
للمؤسسات	24 د.ك

الدول العربية الأخرى

للأفراد	25 دولارا أمريكيا
للمؤسسات	50 دولارا أمريكيا

خارج الوطن العربي

للأفراد	50 دولارا أمريكيا
للمؤسسات	100دولار أمريكي

تسدد الاشتراكات مقدما بحوالة مصرفية باسم المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب وترسل على العنوان التالي:

السيد الأمين العام

للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

ص. ب: 28623 - الصفاة - الرمز البريدي13147

دولة الكويت

رقم الإيداع: ٢٠١٢/٣٠٦

ردمك: ٤-٣٦٤-٠-٦٩٩٩٠-٩٧٨

• الإحساس بالنهاية
(رواية)

العنوان الأصلي:

The Sense of an Ending

by: Julian Barnes

Alfred A. Knopf

New York 2011

الطبعة الأولى - الكويت

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2012م

إبداعات عالمية - العدد 389

صدر العدد الأول في أكتوبر 1969م

تحت اسم سلسلة من المسرح العالمي

أسسها أحمد مشاري العدواني

(1990 - 1923)



المقدمة

ولد الروائي جوليان بارنز في لايسستر، بإنجلترا في يناير من العام ١٩٤٦، ويعد من أبرز الروائيين في القرن الواحد والعشرين، فقد حاز جوائز عدة عن رواياته، منها جائزة سومرست موم عن روايته «مترولاند» (١٩٨١)، وجائزة جيفري فيبر ميموريال عن رواية «ف ب» (١٩٨٥). كما أدرجت روايتان له، وهما «ببغاء فلوبرت» (١٩٨٤) و«إنجلترا، إنجلترا» (١٩٨٨)، على القائمة المختصرة لجائزة مان بوكر. أما روايته «الإحساس بالنهاية»، فقد حازت جائزة مان بوكر في أكتوبر ٢٠١١، وأكسبت الكاتب شهرة عالمية واسعة وثناء من النقاد، فقد وصفت رئيسة لجنة تحكيم جائزة بوكر، ستيلا ريمنغتون، الرواية بأنها تتمتع بمزايا الأدب الكلاسيكي، وأنها تتحدث للإنسانية في القرن الواحد والعشرين، وقال عنها مايكل بروجر من الفاينانشال تايمز إنها تستحق أن تقدم لأفضل الجوائز الأدبية في العالم، وأثنى بشكل خاص على قدرة بارنز على الغوص في تفاصيل الذاكرة الإنسانية وعلى مهارته في تطويع اللغة لهذا الغرض. وقال جاستن جوردان من مجلة «الغارديان» إن الرواية تعد «تأملا عميقا في قضايا التقدم في العمر والذاكرة والندم». وشبهتها أنيتا بروكنر من «الديلي تلغراف» بروايات الكاتب الأمريكي الشهير هنري جيمز لما تصوره من مأساة للقلب والذاكرة، وقد أجمع النقاد على أن شهرة بارنز ومكانته ككاتب مرموق ازدادت مع صدور روايته هذه.

تغوص رواية «الإحساس بالنهاية» في أحد الصراعات الإنسانية الخالدة بين حاضر الإنسان وماضيه وهيمنة الماضي على الحاضر، بحيث يصبح شبحا يطارد الشخصية الرئيسية وراوي القصة (أنتوني وبستر) ويلون وعيه بالحاضر، لاسيما أنه في أواسط العمر وعلى عتبة الشيخوخة، وبهذا فإن الراوي يحاول أن يتصالح مع ماض مشوه ويبحث عن الخلاص من ندم على أحداث ماضية لا يستطيع تغييرها، فالندم، كما يصفه الراوي، هو «شعور أكثر تعقيدا، متخثر وبدائي. شعور سمته

الرئيسـية أنه لا يمكن فعل شـيء حياله: زمن طويل جدا مضيء، ودمار كبير جدا وقع، إلى درجة لا يمكن معها إصلاحه».

تأخذنـا الروايـة إلى أحداث ماضيـة، حيث يحاول أنتوني ويبسـتر أن يجـد إجابات بشـأن علاقة كان فيها واحدا مـن ثالوث مع صديقه أدريان فـن وحبيبته فيرونـكا، وحين رفض أنتوني الالتـزام بعلاقة طويلة المدى مـع حبيبـة صباه، وانسـحب من حياتهـا، ارتبطت فيرونكا بعـد مدة في علاقـة مـع أدريان، بيد أن العلاقة أدت بشـكل غامض إلـى انتحار أدريان بشـكل مأساوي. بعد أربعين سنة عاش فيها أنتوني حياة هادئة تخلو من المفاجآت كانت فيها «الحياة تحدث له»، وتزوج بهدوء من مارغريت وأنجب منها ابنته الوحيدة سوزي، وطلق زوجته بهدوء وتقاعد من عمله، تصله رسـالة مـن والدة فيرونـكا المتوفاة حديثـا تترك له فيها إرثـا يتألف من خمسمائة جنيه ووثيقتين، إحداهما كانت يوميات أدريان التي كتبها قبل انتحاره. وعلى قدر ما كان الماضي مشوشـا بالنسـبة إلى أنتوني، بيد أنه مجبر الآن على إعادة بنائه من الذاكرة، بقدر ما تكون الذاكرة الإنسـانية مضللة، تبين أن الإنسـان حين يتقدم في العمر لا يعني أن حياته سـوف تصل إلى نهاية مرتقبة ونضج في الشخصية، كما توقع أنتوني نفسه، بل إن البحث عن الذات رحلة متواصلة لا يوقفها إلا الموت، وعلى هذا تنتهي رحلة بحث أنتوني والرواية باكتشـاف أنتوني شـيئا غيـر متوقع مطلقا، وتنتهـي رحلـة قـراءة الرواية بصدمة القارئ نفسـه مما هـو غير متوقع وإحساسـه بالحاجة إلى قراءة الرواية من جديد: فأي من أجزاء الرواية التـي يذكرهـا، وأي من أحداث الرواية التي سـردها أنتونـي ولكنها كانت غير موثوقة، اجترار من الذاكرة وتفسير أنتوني الشخصي للأحداث، وأي منهـا كانت أحداثا موثوقة فـي روايتها؟ فما نتذكره في النهاية هو ليس نفسه ما شهدناه، هكذا يبدأ أنتوني بسرد قصته.

تدور الرواية حول الزمن والذاكرة، وما يرتبط بهما من تفسير التاريخ وكتابتـه، فتيمـات مثل التفسـير الشـخصي والموضوعي للتاريخ (سـواء تاريخ الأشـخاص أو تاريخ الأمم) وعـدم موثوقية الذاكرة وأخطائها تقع

في مركز الرواية. إحدى المشاكل الرئيسية في التاريخ، كما يقول أدريان لمعلمه، هي «مسألة التفسير الشخصي ضد التفسير الموضوعي، حقيقة أننا نحتاج إلى أن نعرف تاريخ المؤرخ حتى نفهم النسخة التاريخية المعروضة أمامنا». فالتاريخ، كما يتابع أدريان قائلا: «هو ذلك اليقين الذي يحدث عند النقطة التي تلتقي فيها عيوب الذاكرة مع عدم كفاية التوثيق». ونحن إن تمعنا في سرد أنتوني لقصته، نجد أنه في الواقع يكتب تاريخا لحياته معتمدا في ذلك على ذاكرته، بما تعانيه من عيوب، وتوثيق غير كاف لأحداث ماضيه، وبهذا فهو مؤرخ، أو سارد، غير موثوق به، فالنسخة التاريخية لأي حدث يعرضه لنا إما أنها تتغير وإما أنه يعرض لنا معها نسخة أخرى موازية لها ويبقى حائرا بشأن مصداقية أي منهما. ولنسوق مثالا على ذلك مشهدا يقع في مركز الرواية، وهو اليوم الذي دعته فيه فيرونكا لزيارة أهلها والتعرف عليهم. في النسخة الأولى التي يسردها لنا أنتوني لهذا الحدث، يصور فيها الزيارة على أنها كارثية لما شعر به من مهانة ومذلة مقصودة من فيرونكا وأهلها، فقد أوهمنا أن غرض فيرونكا من الدعوة كان أن تعرضه على أهلها، لاسيما أخوها جاك، لمعرفة إن كان «يصلح» أو لا يليق بعائلتها. بعد الزيارة قطع أنتوني علاقته بفيرونكا واعتبر أن بها «خللا ما» قد يكون سببه علاقة غير سوية مع أبيها أو أخيها. بعد أربعين سنة يلتقي بفيرونكا مرة أخرى، وبعدها يتبين لنا، وله، أن هناك تفاصيل في تلك الزيارة كانت قد سقطت في «شقوق الذاكرة»، وحين يسترجعها نكتشف أن فيرونكا كانت قد تصرفت معه بمودة وحب أمام أهلها وحميمية حين اصطحبته إلى غرفته. وبهذا فإن النسخة التاريخية للحدث نفسه تتغير وتتركنا نحن القراء حائرين فيما إن كان علينا أيضا أن نعيد النظر في التفاصيل الأخرى للنسخة الأولى. هل علينا، كما يقول أدريان، أن نعرف تاريخ المؤرخ، حتى نفهم النسخة التاريخية المعروضة أمامنا؟ نعم، هناك درجة كبيرة من الصدق في تلك المقولة، فأنتوني، كما يعترف هو نفسه، به «عوز» جعله مقتنعا طوال حياته بأن فيرونكا نظرت إليه باحتقار وفضلت عليه أدريان، الشاب

الذكي خريج جامعة كيمبردج، لكن هذا الإحساس بالنقص لم يكن سببه فيرونكا بقدر ما كان إحساسا داخليا لون علاقته بالآخرين، وجعله يبحث عن ملجأ في علاقة «آمنة» مع مارغريت تخلصه من إحساسه بالنقص، وكان عليه أن يصيغ نسخة تاريخية تسوغ له هروبه من فيرونكا. وحتى توثيق أنتوني غير كاف لأن يزودنا بنسخة متكاملة، فحين يرتبط أدريان وفيرونكا بعلاقة بعد انسحاب أنتوني، يخبرنا أنتوني أنه، رغم إحساسه بالغيرة - نعلم أن مصدرها إحساسه بالنقص - بعث لهما بطاقة بريدية كتب عليها كلمات تمنى فيها لهما حظا طيبا، وأنه فيما بعد بعث لهما رسالة مفصلة. تفاصيل هذه الرسالة الأخيرة سقطت في «شقوق الذاكرة» أيضا، لولا أن فيرونكا احتفظت بها وردتها له بعد أربعين سنة، وحين نقرأها مع أنتوني نعرف، كما يعترف أنتوني نفسه، أن محتواها من القبح بمكان بحيث يفقد أنتوني آدميته، فقد تمنى لهما أن يعيشا في جحيم، ويكون ثمرة ارتباطهما جنين من صلبيهما يصير لعنة عليهما. فإن كان التاريخ هو ذلك اليقين الذي تلتقي عنده عيوب الذاكرة مع عدم كفاية التوثيق، من الواضح أن ذلك اليقين نسبي زمانيا ومكانيا، إن لم يكن يقينا أصلا، بل ما نوهم به أنفسنا أنه يقين. لهذا، فإن نهاية الرواية مفزعة ليس للراوي فقط، بل للقارئ أيضا. لو قدر لأي منا أن يؤرخ لحياته، ما التفاصيل التي ستغيب في «شقوق الذاكرة» وتلك التي ستطفو على السطح؟ أي يقين سينتهي به سرد قصتنا؟ هذا ما تتمحور حوله الرواية: مأساة الذاكرة الإنسانية.

تمثل الأعمال الأدبية تحديا من نوع خاص للمترجمين. وقد حاولت في ترجمتي لهذه الرواية أن أحافظ، بقدر المستطاع، على جمالية النسيج الفني والإيقاع الموسيقي الذي يتمثل في استخدام الكاتب صورا يتردد صداها في أرجاء الرواية. فصور مثل النهر والزمن وباطن الرسغ والجلد يتردد صداها في أرجاء الرواية لتخلق نسيجا فنيا متكاملا وإيقاعا موسيقيا متناغما، وقد اجتهدت في أن تعكس الترجمة تلك النواحي الفنية من العمل، مؤثرا في بعض الأحيان الجانب الفني على المعنى.

على سبيل المثال، حين يقرر أنتوني أن يلاحق فيرونكا لكي يحصل منها على يوميات أدريان يردد عبارة «get under her skin»، وهي عبارة من اللغة العامية تعني «أن يزعجها»، وقد آثرت أن أترجم العبارة حرفيا، أي «أن أندس تحت جلدها»، لأن الصورة نفسها تتكرر بشكل آخر في مواضع أخرى من الرواية لتخلق نسقا يعطينا فكرة أوضح عن الحالة الذهنية لأنتوني، فهو يقرر فيما بعد أنه لا يريد أن «يسلخ جلدها»، وبعدها يتحدث بالتفصيل عن طريقة فرنسية في شي الدجاج ونزع جلده وإضافة التوابل الحارة عليه. وينطبق هذا الأمر على صور فنية أخرى في الرواية يتحد بعضها مع بعض لتشكل نسيجا فنيا متكاملا.

كما تمثل الرواية تحديا من نوع آخر في ترجمتها، يتعلق بالأسلوب السردي المستخدم، وهو أسلوب تيار الوعي (Stream of Consciousness) القائم على تدفق الأفكار كما تحدث في رأس الراوي وامتزاج الذاكرة بالتجارب الحالية. لهذا فإن اللغة المستخدمة في هذه التقنية السردية لا تعتمد على روابط منطقية تفرضها القواعد النحوية للغة، بل على روابط نفسية، فتتدفق الكلمات كما يفكر فيها الراوي ولا تكون غالبا جملا كاملة من ناحية نحوية. وقد اجتهدت عند الترجمة في أن أحافظ على هذا الأسلوب السردي، على الاختلاف في بناء الجمل والمعنى في كل من اللغتين العربية والإنجليزية، ما لم يبهم ذلك المعنى. أرجو أن أكون قد وفقت في القيام بذلك وفي نقل عمل أدبي رائع للقارئ العربي.

والله ولي التوفيق

د. خالد مسعود شقير

الكويت

٨ مارس ٢٠١٢

الجزء الأول

أتذكر ليس بترتيب زمني معين:

- باطن رسغ لامعا.
- بخارا يتصاعد من حوض رطب وقد ألقي فيه بضحكة مقلاة ساخنة.
- نهرا يتدفق بشكل غير منطقي ضد تياره، في حين يضيء موجه واندفاعه نصف دزينة من المشاعل التي تلاحقه.
- نهرا آخر، واسعا رمادي اللون، تخفي اتجاه تدفقه رياح قوية تثير سطحه.
- مياه حمام أصبحت باردة منذ زمن خلف باب موصد.

هذا الحدث الأخير ليس شيئا رأيته بالفعل، لكن ما تتذكره في النهاية ليس هو نفسه ما شهدته.

نحن نعيش في زمن يحتوينا ويشكلنا، لكن لم أشعر قط بأني فهمته بشكل جيد. ولا أشير هنا إلى نظريات حول كيفية انثنائه وارتداده، أو إلى إمكان وجوده في مكان آخر في نسخ متوازية. كلا، بل أعني الزمن الاعتيادي اليومي الذي تؤكد لنا ساعات اليد والحائط أنه يمر بشكل منتظم: تيك - توك، تيك - توك. هل هناك شيء آخر أكثر مصداقية من عقرب الثواني؟ ومع ذلك، نحتاج فقط إلى أقل قدر من المتعة والألم لنتعلم مطواعية الزمن. فبعض العواطف تسرعه، وبعضها الآخر تبطئه، وأحيانا يبدو كأنه فقد، حتى تحين نقطة النهاية حيث يفقد حقا ولا يعود أبدا.

لست مهتما بالأيام التي قضيتها في المدرسة ولا أشعر بالحنين إليها. لكن المدرسة هي المكان الذي بدأ فيه كل شيء،

ولهــذا علي أن أعــود بعجالة إلى بعض الأحــداث التي صارت حكايات، وإلى ذكريات قريبة شوهها الزمن فصارت يقينا . إن لم أســتطع أن أكون على يقين مــن الأحداث الفعلية بعد الآن فعلى الأقل أستطيع أن أكون صادقا في الانطباعات التي خلفتها تلك الحقائق. ذلك أفضل ما في وسعي فعله.

كنــا ثلاثة وصار رابعنا . لم نتوقع أن نضيف أحدا إلى عددنا المحكم، فالزمر والأزواج كانت قد تشكلت قبل ذلك بزمن طويل، وكنا قد بدأنا بالفعل تخيل هروبنا من المدرســة إلى الحياة. كان اســمه أدريان فــن، وهو صبي طويل وخجــول، كان يبقي عينيه ناظرة إلى الأســفل ويحتفظ بعقله لنفسه . في أول يوم أو يومين لــم نعره كثيرا من الانتباه، ففي مدرســتنا لم تكن هناك طقوس ترحيب، فضلا عن العكس من ذلك، إخضاع عقابي. فقد لاحظنا وجوده فقط وانتظرنا .

كان المعلمون أكثر اهتماما به منا، فكان عليهم أن يحددوا مستوى ذكائه ومدى انضباطه وأن يتبينوا جودة تعليمه السابق وإذا ما كان سيثبت أنه «مادة خام صالحة للعلم». في صبيحة ذلك اليوم الثالث من فصل الخريف، كانت لدينا حصة تاريخ يدرسها أولد جو هانت، معلم ظريف بلهجة متهكمة يرتدي بذلة ذات ثلاث قطع، ويعتمد في أسلوب ضبط الصف على الحفاظ على قدر كاف، ليس مفرطا، من الضجر.

«الآن، تذكرون أني طلبت منكم أن تقوموا بقراءات أولية عن حكم هنري الثامن».

نظرت أنا وكولن وألكس إلى بعضنا البعض آملين أن السؤال لن يمر بسرعة خاطفة، كطعم الصنارة، ليهبط على رأس واحد منا. «من يود أن يتحدث عن معالم ذلك العصر؟»، توصل إلى استنتاجه الخاص به معتمدا على نظراتنا التي تحاول تلافيه. «حسنا، لعل مارشال يقوم بذلك. هلا تصف لنا حكم هنري الثامن؟».

كانت راحتنا أشد من فضولنا لأن مارشال كان صبيا حذرا لا يعرف شيئا ويفتقر إلى ابتكار الجهل الأصيل. بحث عن تعقيدات محتملة يتضمنها السؤال قبل أن يقوم في النهاية بالاستجابة.

«كان هناك عدم استقرار يا سيدي».

تبع ذلك سيل من الابتسامات المتكلفة كان من الصعب كتمها، حتى هانت نفسه كان على وشك الابتسام.

«لعلك تستطيع أن تسهب؟».

طأطأ مارشال رأسه موافقا ببطء وفكر قليلا وقرر أن الوقت غير مناسب لأن يكون حذرا. «أعتقد أنه كان هناك عدم استقرار عظيم يا سيدي».

«فن، إذن. ألديك اهتمام بتلك الحقبة؟».

كان الصبي الجديد يجلس في صف أمامي إلى جهة اليسار مني. وكان لم يبد أي استجابة واضحة لحماقات مارشال.

«أخشى أني لست كذلك يا سيدي. لكن هناك طريقة تفكير واحدة بموجبها تستطيع أن تحكم على أي حدث تاريخي - حتى نشوب الحرب العالمية الأولى على سبيل المثال - وهي أن «شيئا ما حدث».

«بالطبع، أليس كذلك؟ إذن ذلك سوف يجعل مني عاطلا عن العمل، أليس كذلك؟»، وبعد أن أطلق أولد جو هانت ضحكة متملقة عذر كسلنا في أثناء العطلة وأتخمنا بمحاضرة عن ذلك الملك السفاح المزواج.

في الاستراحة التالية بحثت عن فن «أنا توني وبستر». نظر إلي بحذر. «كان ذلك سطرا عظيما قلته لهانت». بدا كأنه لا يعرف ما كنت أشير إليه. «أعني ما قلته عن أن شيئا ما حدث».

«آه، نعم. لقد خاب ظني لأنه لم يستوعب الفكرة».

لم يكن ذلك ما كان من المفترض أن يقوله.

أتذكر تفصيلا آخر. كنا ثلاثتنا كرمز للرابط بيننا نرتدي ساعاتنا ووجوهنا على باطن المعصم. لقد كان ذلك تصنعا بالطبع، لكن لعله كان أكثر من ذلك. فقد جعلت من الزمن يبدو

كأنه شيء شخصي وحتى سري. لقد توقعت أن ينتبه أدريان لهذه الحركة ويحذو حذونا، لكنه لم يفعل.

في وقت متأخر من ذلك اليوم - أو لعله كان يوما آخر - كانت لدينا حصة مزدوجة في اللغة الإنجليزية يدرسها فيل ديكسون، معلم يافع تخرج حديثا في كيمبردج. كان يحب أن يستخدم نصوصا معاصرة ويطرح علينا أسئلة متحدية بشكل مفاجئ. «الميلاد والتكاثر والموت»، هذا كل ما في الأمر كما يقول ت. أس. إليوت. «أي تعليق؟»، وذات مرة قارن بطلا شكسبيريا بكيرك دغلاس في فيلم سبارتكوس. وأذكر كيف كان، حين نناقش تيد هيوز، يميل برأسه بشكل متحذلق ويتمتم «بالطبع نحن جميعنا نتعجب ماذا سيحدث حين يستنفد جميع الحيوانات». أحيانا كان يخاطبنا بـ «السادة». من الطبيعي أننا كنا مولعين به.

بعد ظهر ذلك اليوم وزع علينا قصيدة لا عنوان لها أو تاريخ أو مؤلف، ومنحنا عشر دقائق لندرسها، ثم طلب استجاباتنا.

«هل نبدأ بك يا فن؟ بكلمات بسيطة ما الذي تتحدث عنه القصيدة؟».

رفع فن عينيه عن مقعده. «إيروس وثاناتوس، يا سيدي»[1].

«همم. تابع قولك».

«الجنس والموت»، تابع فن قوله وكأن ليس فقط الأغبياء الذين يجلسون في الصف الخلفي لم يفهموا اللغة الإغريقية. «أو الحب والموت إن أحببت. إن مبدأ الشهوة على أي حال يدخل

---

(١) آثرت أن ألجأ إلى النقل الحرفي في ترجمة كلمتي «Eros and Thanatos»، إذ إن المغزى هنا أن فن أثار إعجاب معلمه وزملائه باستخدامه عبارات من اللغة الإغريقية، ولهذا فإن ترجمتهما تفقد الجزء التالي من الحوار معناه - [المترجم].

دائمـــا فـي صـراع مع مبـــدأ المـــوت، وما يتبـــع ذلـــك من صـــراع يا سيدي».

أظهـــرت إعجابا على الأغلـــب أكثر من الحد الـــذي يعتبره ديكسون صحيا.

«وبستر، نورنا بالمزيد».

«ظننت أن القصيدة تتحدث فقط عن بومة مخزن، يا سيدي».

كان ذلك واحدا من الفروق بين ثلاثتنا وصديقنا الجديد. كنا فـــي العادة نتلقى اللوم إلا حين نكون جديين، وكان هو في العادة جديا إلا حين يتلق اللوم. لقد استغرق ذلك الأمر فترة من الزمن لكي نتعامل معه.

سمح أدريان لنفســـه بأن ينخرط في مجموعتنا، من دون أن يعترف أن ذلك كان أمرا سعى إليه. لعله لم يفعل. ولم يغير آراءه لتنســـجم مع آرائنا. ففي صلوات الصباح كان يمكن سماعه في التراتيل بينما كنت أنـــا وألكس نتمتم الكلمات فقط، وكان كولن يفضـــل الحيلة المتهكمة لصوت جهوري حماســـي لمتعصب ديني زائف. وقـــد اعتقد ثلاثتنا أن الرياضة في المدرســـة ما هي إلا خطة فاشية ســـرية لكبح جماح الغريزة الجنسية، انضم أدريان إلى نادي المبارزة ومارس القفز الطويل. وكنا نسد آذاننا بعدوانية، فقد كان يأتي إلى المدرســـة حاملا معه آلة الكلارينت. حين كان كولن يشـــجب العائلة، كنت أنا أسخر من النظام السياسي، وكان ألكس يطلق اعتراضات فلســـفية على طبيعة فهمنا للواقع، وكان أدريـــان يحافظ على تكتمه - في بداية الأمر على كل حال. فقد كان يثير الانطباع بأنه يؤمن بأمور معينة. وكنا نحن كذلك - غير

أننا كنا نرغب في أن نؤمن بأمور خاصة بنا، وليس أمورا أعدت لنا، وهكذا فقد كان هناك ما كنا نعتقد أنه شك مطهر.

كانت المدرسة تقع في وسط لندن، وفي كل يوم كنا نذهب إليها من مناطقنا المتفرقة، حيث نعبر من نظام سيطرة إلى نظام آخر. في تلك الأيام كانت الأشـياء أبسـط: مال أقل، لا يوجد أجهزة إلكترونية، قدر بسـيط من اسـتبداد الموضة، لا يوجد حبيبات. لم يكن هناك ما يشـتت انتباهنا عن واجبنا الإنسـاني والبنوي، وهو أن ندرس وننجح في الاختبارات ونسـتخدم هذه المؤهلات في الحصول علـى عمل، ومن ثم نصنع طريقـة حياة تخلو من المخاطر وأكثر انشغالا من حياة آبائنا الذين كانوا يوافقون عليها، في حين كانوا في السـر يقارنونها بحياتهم التي كانت أبسط من ذلك، وبهـذا أفضل. لم يكن يصرح بذلـك مطلقا بالطبع، فقد كانت الطبيعة الداروينية الدمثة للطبقات الوسـطى في المجتمع الإنجليزي دائما متخفية.

«هؤلاء اللعناء، الآباء»، قال كولن متذمرا عند وقت الغداء في يـوم إثنين. «تظن أنهم على ما يرام حين تكون صغيرا، ثم تدرك أنهم فقط مثل..».

«هنـري الثامن، كول؟»، اقترح أدريان. وكنا قد بدأنا الاعتياد علـى روح المفارقـة لديه، وأيضا على حقيقـة أن ذلك يمكن أن ينقلـب ضدنـا كذلك. فحين كان يغيظنـا أو يطلب منا أن نكون جادين كان يدعوني أنتوني، ويصبح اسم ألكس ألكساندر، واسـم كولن الذي ليس بذاته اختصارا لاسـم أطـول يختصره ليصبح كول.

«لن أمانع لو كان لدى أبي نصف دزينة من الزوجات».

«وكان فاحش الثراء».

«ورسم له هولبين صورة».

«وقال للبابا أن يغرب عن وجهه».

«هل هناك سبب ما لتدعوهم باللعناء؟» سأل ألكس كولن.

«أردت أن نذهب معا إلى مدينة الملاهي، وقالوا إن عليهم أن يمضوا عطلة نهاية الأسبوع في أعمال البستنة».

هذا صحيح: إنهم لعناء. إلا بالنسبة إلى أدريان الذي استمع لشجبنا ولكنه نادرا ما انضم إلى حديثنا. ومع ذلك بدا لنا أن لديه أسبابا أكثر منا، إذ هربت أمه قبل سنوات تاركة خلفها أباه الذي كان عليه أن يتأقلم مع أدريان وأخته. وكان ذلك قبل أن يصبح مصطلح «العائلة ذات الوالد الواحد» شائعا بمدة طويلة، فقد كان يسمى في ذلك الحين «العائلة المفككة»، وكان أدريان الشخص الوحيد الذي نعرف أنه نشأ في عائلة مفككة. وكان ذلك الأمر من المفترض أن يمنحه مخزونا ضخما من الغضب الوجودي، لكن بشكل ما لم يحدث ذلك، فقد قال إنه يحب أمه ويحترم أباه. ودرسنا ثلاثتنا في السر حالته وتوصلنا إلى نظرية: أن مفتاح السعادة في حياة العائلة هو ألا تكون هناك عائلة، أو على الأقل ألا تكون عائلة تعيش معا. وبعد أن قمنا بهذا التحليل صرنا أكثر حسدا لأدريان.

في تلك الأيام تخيلنا أنفسنا محبوسين في قلم حبر ذي كبسة، في انتظار أن نتحرر ونعيش حياتنا. وحين حانت تلك اللحظة، أخذت حياتنا - والزمن نفسه - بالتسارع. كيف لنا أن نعلم أن

حياتنـــا كانت قد بدأت على أي حال، وأن بعض المنافع كانت قد جنيــت، وأن بعض الأضرار قد وقعت؟ وأيضا إن تحررنا فما هو إلا تحـــرر إلى داخل قلم آخـــر أضخم لا تكون حدوده مدركة في بداية الأمر.

في ذلك الحـــين كنا جوعى للكتب، جوعـــى للجنس، مؤمنين بالجـــدارة، فوضويين. فقد بدا لنا أن جميع الأنظمة السياســـية والاجتماعية فاســـدة، ومع ذلك رفضنا أن نقبل ببديل آخر غير الفوضـــى القائمة على المتعة. غير أن أدريان دفعنا إلى أن نؤمن بتطبيـــق الفكر على الحياة وإلى الرأي القائل إن المبادئ يجب أن تقود التصرفات أو الأفعال. في السابق كان ألكس يعد الفيلسوف بيننـــا، فقد كان قد قرأ كتبا لم يقرأهـــا الاثنان الآخران، ومثلا قـــد يعلن فجأة «مـــا لا نتكلم عنه هو مصـــدر بقائنا صامتين». كنـــت أنا وكولن نتأمـــل الفكرة بصمت لبعض الوقت ثم نبتســـم ابتسامة عريضة ونتابع حديثنا. ولكن الآن مع وصول أدريان فقد ألكس مكانته، أو بالأحرى أعطانا خيارا لفيلسوف آخر. فإن كان ألكس قد قرأ رســـل وويتغنشتاين، فقد قرأ أدريان كامو ونيتشه. وقـــرأت أنا جورج أورويل وألداوس هاكســـلي، وقرأ كولن بودلير ودوستويفكسي. هذا قليل من الوصف المبالغ فيه فقط.

نعـــم بالطبع كنـــا متصنعين، فلأجل ماذا وجد الشـــباب؟ كنا نستخدم كلمات مثل «النظرة الشمولية» و«العاصفة والإجهاد»[٢]،

---

(٢) «النظرة الشـــمولية» (Weltanschauung) حركة فلسفية ألمانية تُعنى بتفسير التاريخ أو تفســـير العالم بشكل شـــمولي، أما «العاصفة والإجهاد» (Sturm und Drang) فهي حركة أدبيـــة ألمانية رومانســـية ازدهرت في أواخر القرن الثامن عشـــر كرد فعل علـــى حركة التنوير العقلانية - [المترجم].

ونستمتع حين نقول «ذلك واضح من وجهة نظر فلسفية»، ونؤكد لبعضنا أن الواجب الأول للخيال أن يكون متجاوزا للحدود. ورأى آباؤنا الأمور بشكل مختلف، فكانوا يتصورون أن أطفالهم أبرياء تعرضوا فجأة لتأثير مفسد. وهكذا كانت أم كولن تدعوني «الملاك الأسود»، ولام أبي ألكس حين رآني أقرأ «البيان الشيوعي»، وكولن اتهمه والدا ألكس حين ضبطوه يقرأ رواية أمريكية واقعية تدور حول الجرائم.. وهكذا. وكان الأمر نفسه بالنسبة إلى الجنس. فقد اعتقد آباؤنا أنه يمكن أن يفسد أحدنا الآخر بحيث نصير ما يخشونه بشدة. ونيابة عنا كانوا يخشون التقارب في صداقة المراهقين وسلوك التصيد لبعض الغرباء على متن القطارات، وإغراء الفتاة الخطأ. كم كانت مخاوفهم تسبق تجاربنا.

بعد ظهيرة أحد الأيام طلب منا أولد جو هانت، وكأنه يتابع تحدي أدريان السابق، أن نناقش أسباب الحرب العالمية الأولى، لاسيما مسؤولية مغتال الأرشدوق فرانز فيرديناند عن إشعال الفتيل. في ذلك الحين كان معظمنا يؤمن بمبدأ المطلق. كنا نحب نعم ضد لا، والمدح ضد الذم، والذنب ضد البراءة، أو، كما هو الأمر في حالة مارشال، عدم استقرار ضد عدم استقرار عظيم. لقد أحببنا أي لعبة تنتهي بفوز أو خسارة، وليس تعادلا. ولهذا بالنسبة إلى البعض منا كان القاتل الصربي الذي مسح من ذاكرتي اسمه منذ فترة بعيدة، يتحمل مسؤولية فردية مائة في المائة، إن أنت أزحته من المعادلة فإن الحرب ما كان لها أن تحدث. والبعض الآخر فضل أن تتحمل القوى التاريخية المسؤولية مائة في المائة التي وضعت الأمم المتحاربة على

مسار صدام حتمي، «فقد كانت أوروبا برميلا من البارود في انتظار الانفجار»، وهكذا. وجادل الأكثر فوضوية، مثل كولن، بأن كل شيء كان خاضعا للمصادفة وبأن العالم وجد في حالة من الفوضى الدائمة، وأن مجرد غريزة بدائية لسرد القصص، جاءت بلا شك من مخلفات الدين، فرضت بشكل ارتجاعي معنى على ما يمكن أو ما لا يمكن أن يكون قد حدث.

أشار هانت بإيماءة قصيرة إلى محاولة كولن للتقليل من أهمية أي شيء، وكأن اللا اعتقاد المرضي هذا كان نتاجا طبيعيا للمراهقة، شيء ينمو منه. فقد اعتاد المعلمون والآباء أن يذكرونا بشكل مغيظ أنهم هم أيضا كانوا صغارا يوما ما، وبهذا يستطيعون التحدث من موقع سلطة. فكانوا يصرون على أن ذلك ما هو إلا مجرد مرحلة. سوف تجتازونها، سوف تعلمكم الحياة الواقع والواقعية. لكن في ذلك الحين كنا نرفض أن نعترف بأنهم كانوا في يوم ما يشبهوننا في شيء، وكنا نعلم أننا فهمنا الحياة - والحقيقة والأخلاق والفن - بشكل أكثر وضوحا من كبارنا الخانعين.

«فن، مازلت صامتا، أنت من بدأ بدحرجة الكرة، فأنت، كما كان «قاتلنا» رامينا الصربي». وتوقف هانت ليدع الإشارة الضمنية تأخذ مفعولها. «هلا زودتنا بمنافع أفكارك؟».

«لا أعرف، يا سيدي».

«ما الذي لا تعرفه ؟».

«حسنا، بشكل ما لا أستطيع أن أعرف ما الذي لا أعرفه. هذا واضح من وجهة نظر فلسفية». وترك وراءه إحدى تلك الوقفات

القليلة بحيث تعجبنا مرة أخرى إن كان منهمكا في سخرية مبطنة أو في جدية تتجاوز إدراكنا جميعا، بالطبع أليس مسألة تحديد المسؤولية برمتها نوعا من الذرائع؟ نريد أن نلوم فردا حتى يعفى كل شخص آخر. أو نلوم مسارا تاريخيا كأسلوب لتبرئة الأفراد. أو أن الأمر برمته فوضى تؤدي إلى النتيجة نفسها. يبدو لي أن هناك سلسلة من المسؤوليات الفردية، جميعها بالمستوى نفسه من الأهمية، لكنها ليست سلسلة طويلة جدا بحيث يستطيع كل شخص ببساطة أن يلوم أي شخص آخر. غير أنه بالطبع رغبتي في تحديد المسؤولية قد تكون انعكاسا لطريقة تفكيري أكثر منها تحليلا منصفا لما حدث. هذه إحدى المشكلات الرئيسية في التاريخ، أليس كذلك سيدي؟ مسألة التفسير الشخصي ضد التفسير الموضوعي، حقيقة أننا نحتاج إلى أن نعرف تاريخ المؤرخ حتى نفهم النسخة التاريخية المعروضة أمامنا.

ساد الصمت. وكلٌّ لم يتلق اللوم، ليس على أقل تقدير.

نظر أولد جو هانت إلى ساعته وابتسم. «فن، سوف أتقاعد بعد خمس سنوات، وسوف أكون سعيدا بإعطائك الأفضلية لتأخذ مكاني». ولم يكن يتلقى الغضب أيضا.

في أثناء الطابور الصباحي في أحد الأيام، أعلن المدير بصوت عال احتفظ به لحالات الطرد والهزائم الرياضية الكارثية، أنه يحمل لنا خبرا حزينا، وهو أن روبسون من صف العلوم السادس مات في عطلة نهاية الأسبوع. ووسط همس من التمتمات المكبرة قال المدير إن زهرة شباب روبسون قد قطفت، وأن موته خسارة للمدرسة بأكملها، وأننا سنكون جميعا حاضرين بشكل رمزي في

الجنازة. كل شـــيء في الواقع، ما عدا ما كنا نريد معرفته: كيف ولم، وإذا ما تبين أنها جريمة، من قام بذلك.

«إيــروس وثاناتوس»، علــق أدريان قبل بدايـــة الدرس الأول «ثاناتوس يفوز مرة أخرى».

«لم يكن روبسون بالضبط مادة صالحة لإيروس وثاناتوس»، أخبره ألكس. وأومـــأت أنا وكولن موافقين. كنا نعلم ذلك لأنه كان في صفنا لســنتين: صبي هــادئ يفتقر إلى الخيال، غير مهتــم تماما بالفنون، كان يتجول بيننا من دون أن يســيء إلى أحد. والآن فقد أســاء إلينا حين صنع اســما لنفســه بموته المبكر. زهرة الشباب، بالطبع، فقد كان روبسون الذي عرفناه مادة خضراء.

لم يأت هناك ذكر لمرض أو حادث دراجة أو انفجار غاز، وبعد بضعة أيام كانت هناك إشاعة (روجها أي كي أي براون من صف الرياضيات الســادس) زودتنا بما لم تستطع أو لم ترد السلطات القيام به. لقد تسبب في حمل حبيبته فشنق نفسه في العلية ولم يعثر عليه إلا بعد يومين.

«لم أكن أعلم أنه كان يعرف كيف يشنق نفسه».

«ولكنه كان في صف العلوم السادس».

«ولكنك تحتاج إلى نوع خاص من العقد المنزلقة».

«إن ذلك يحدث فــي الأفلام فقط، والإعدامات الرســمية. تستطيع أن تقوم بذلك باستخدام عقدة عادية. لكنها تأخذ وقتا أكثر لتخنقك».

«ماذا نعرف عن حبيبته؟».

فكرنا فـــي الخيارات المعروفة لدينا، عذراء محتشـــمة (الآن عـــذراء ســـابقة)، امرأة كبيـــرة مجربة، مومـــس مصابة بمرض تناسلي. ناقشـــنا ذلك الأمر حتى عمل أدريان على إعادة توجيه اهتمامنا.

«قـــال كامـــو إن الإنتحار هـــو القضية الفلســـفية الحقيقية الوحيدة».

«باســـتثناء الأخلاق والسياســـة وعلم الجمال وطبيعة الواقع وجميع الأمور الأخرى». كانت إجابة ألكس سريعة حادة.

«إنها القضيـــة الحقيقية الوحيدة. القضية الأساســـية التي يعتمد عليها كل شيء آخر».

وبعد تحليل مســـهب لانتحار روبسون، قررنا أنه يمكن النظر إلى الأمر على أنه قضية فلســـفة بالمفهوم الحسابي للكلمة، فقد كان هو على وشك التسبب في زيادة فرد آخر إلى عدد السكان، ولهذا قـــرر أن واجبه الأخلاقي يحتم عليه أن يحافظ على عدد ســـكان الكوكب ثابتا. ولكن من جميع النواحي الأخرى قررنا أن روبســـون خيب آمالنا وأمـــل التفـــكير الجدي. فقد كـــان فعله لا فلسفيا، منغمســـا في ملذات نفسه ولا فنيا، وبكلمات أخرى، كان خاطئا. أما بالنسبة إلى ملاحظة الانتحار التي تركها والتي وفق الشـــائعة (مرة أخرى براون روجها) تقول: «آســـف يا أمي»، فقد شعرنا بأنها فوتت فرصة تعليمية قوية.

ربما لن نكون بهذه القســـوة على روبسون لولا حقيقة رئيسية واحدة لا يمكن تغييرها: كان روبسون في عمرنا، وبمفهومنا كان غير اســـتثنائي، ومع هذا لم يتآمر ليجد له حبيبة فقط، بل وأن

يبادلهـــا الغرام. لماذا هو وليس نحن؟ لمـــاذا لم يتوافر لواحد منا حتـــى تجربة الفشـــل في الحصول على حبيبـــة؟ فعلى الأقل إن المذلة التي كانت ستخلفها التجربة ستزيد من حكمتنا وستمنحنا شيئا نتباهى به بشكل سلبي («في الواقع كانت كلماتها بالضبط: إنـــه صبي تعلو وجهـــه البثور ويكمن ســـر جاذبيتـــه في حذائه الخفيـــف»)، كنا نعرف من قراءاتنـــا في الأدب العظيم أن الحب ينطوي على المعاناة، وكنا ســـنقبل سعيدين بالمعاناة لو كان هناك وعد ضمني، أو ربما منطقي، بأن الحب في طريقه إلينا.

كان ذلـــك واحدا آخر من مخاوفنـــا: أن الحياة لن تكون مثل الأدب. أنظـــر إلى آبائنـــا - هل كانوا مادة لـــلأدب؟ في أفضل أحوالهم يمكن أن يطمحوا في منزلة العابرين أو المتفرجين، جزء من الســـتارة الخلفية الاجتماعية التي يمكـــن أن تحدث أمامها أشـــياء حقيقية ومهمة. مثل ماذا؟ مثل الأشياء التي يدور حولها الأدب: الحـــب، الجنس، الأخلاق، الصداقة، الســـعادة، المعاناة، الخيانة، الزنى، الخير والشر، الأبطال والأنذال، الذنب والبراءة، الطموح، السلطة، العدالة، الثورة، الحرب، الآباء والأبناء، الأمهات والبنات، صراع الفرد ضد المجتمع، النجاح والفشـــل، الجريمة، الانتحـــار، الموت، الإله. ويوم المخـــازن. بالطبع كانت هناك أنواع أخرى من الأدب - النظري، الذاتي، الســـيرة الذاتية الحزينة - ولكن هـــذه جميعها جافة لا فائدة منهـــا. الأدب الحقيقي يدور حول الحقيقة النفســـية والعاطفية والاجتماعية كما تجســـدها أفعال وتأمـــلات أبطالها، فالرواية تدور حول شـــخصية تتطور مع مرور الزمن. هذا ما أخبرنا إياه فيل ديكســـون على أي حال.

والشــخص الوحيد - عدا روبســون - الذي احتوت حياته على شيء جدير إلى حد ما بمنزلة الرواية كان أدريان.

«لماذا هجرت أمك أباك؟».

«لست متأكدا».

«هل كان لأمك رجل آخر؟».

«هل كان أبوك ديوثا؟».

«هل كان لأبيك عشيقة؟».

«لا أدري. قالوا إني سأفهم ذلك حين أكبر».

«هذا ما يعدون به دائما. ماذا لو تشــرحــونه لــي الآن، هــذا مــا أقوله». غير أني لم أقــل لهم هذا قط. وبيتنا، وفق ما أعلم، لم يكن به أي غموض، لعاري وخيبة أملي.

«لعل أمك لها عشيق شاب؟».

«كيــف لي أن أعرف. فنحن لا نلتقي مطلقا هناك، فهي عادة ما تأتي إلى لندن».

كانت تلك حالة ميئوســا منها. في الروايــة لن يتقبل أدريان الأشياء كما شــرحوها له. ما الغرض من أن يكون هناك موقف جدير بمنزلة الرواية إن لم يتصرف البطل كما كان سيتصرف لو كان في كتاب؟ كان علــى أدريان أن يتقصى الأخبار، أو أن يوفر مصروفه ويستأجر محققا خاصا، ربما كان على أربعتنا أن نقوم برحلة بحث عن الحقيقة. أو لعل ذلك ســيكون أقل شبها بالأدب وأكثر شبها بقصص الأولاد.

في درس التاريخ الأخير في الســنة، أولــد جو هانت، الذي كان قد قاد تلاميذه الكسالى عبر حقب التودريين والستيوارتيين

والفكتوريين والإدوارديين، وصعود الإمبراطورية وسقوطها اللاحق، دعانا إلى أن ننظر إلى كل تلك العصور ونحاول أن نستخلص نتائجنا.

«ربما نستطيع أن نبدأ بالسؤال الذي قد يبدو بسيطا، ما هو التاريخ؟ ألديك أفكار، يا وبستر؟».

«إن التاريخ أكاذيب المنتصرين»، أجبت بشيء من السرعة.

«نعم. كنت أخشى أنك ستقول ذلك. جيد، مادمت تتذكر أنه أيضا أوهام المنهزمين. سيمبسون؟».

كان كولن أكثر استعدادا مني. «التاريخ شطيرة بصل نيئ، يا سيدي».

«ما السبب؟».

«إنه فقط يعيد نفسه. إنه يتجشأ. لقد رأيناه مرارا وتكرارا هذه السنة. نفس القصة القديمة، نفس التأرجح القديم بين الاستبداد والتمرد، الحرب والسلام، الازدهار والفاقة».

«إن هذا كثير لتحتويه شطيرة، ألا تعتقد ذلك؟».

وضحكنا أكثر بكثير من المطلوب، بهستيرية نهاية العام.

«فن؟».

«التاريخ هو ذلك اليقين الذي يحدث عند النقطة التي تلتقي فيها عيوب الذاكرة مع عدم كفاية التوثيق».

«أليس الأمر كذلك، بالفعل؟ من أين جئت بهذا؟».

«لاغرانج يا سيدي. باتريك لاغرانج. إنه فرنسي».

«يستطيع المرء أن يخمن ذلك؟ هلا أعطيتنا مثلا؟».

«انتحار روبسون، يا سيدي».

كان هناك حبس للأنفاس بشكل واضح وبعض من استدارات الرؤوس بشكل متهور. غير أن هانت، مثل بقية المدرسين، كان يسمح لأدريان بمكانة خاصة. حين كان بقيتنا يحاول الاستفزاز، كان السلوك يرفض على أنه تهكم طفولي، شيء آخر كان علينا أن نكبر عنه. بينما كانت استفزازات أدريان مرحبا بها بطريقة ما على أنها بحث متعثر عن الحقيقة.

«ما علاقة هذا بقضيتنا؟».

«إنه حدث تاريخي، يا سيدي، وإن كان صغيرا. لكنه حديث العهد. ولهذا فهو من المفترض أن يفهم كتاريخ بسهولة. نحن نعرف أنه ميت، نحن نعرف أنه كان لديه حبيبة، نحن نعلم أنها حامل، أو كانت حاملا. ماذا نعرف أيضا؟ لدينا وثيقة واحدة، ملاحظة الانتحار التي تقول «آسف يا أمي»، على الأقل هذا وفق رواية براون. هل مازالت تلك الملاحظة موجودة؟ هل أتلفت؟ هل كان لدى روبسون أي دوافع أو أسباب أخرى عدا تلك الدوافع الواضحة؟ ماذا كانت حالته الذهنية؟ هل يمكن أن نكون متأكدين إذا ما كان الطفل طفله؟ لا نستطيع أن نعرف، يا سيدي، حتى مع قربنا من الفترة الزمنية. إذن كيف يمكن للمرء أن يكتب قصة روبسون بعد خمسين سنة حين يكون والداه أمواتا وتكون حبيبته قد اختفت ولا تريد أن تتذكره على أي حال؟ هل ترى المشكلة يا سيدي؟».

نظرنا جميعا إلى هانت متسائلين إذا ما تجاوز أدريان الحدود كثيرا هذه المرة. إن تلك الكلمة «حامل» بمفردها بدت كأنها حلقت مثل غبار الطباشير. وكذلك بالنسبة إلى الاقتراح

الجـــريء بأبوة بديلة، وأن روبســـون التلميذ ديوث... وبعد برهة أجاب المعلم:

«أرى المشـــكلة، فن. لكن أعتقد أنك تقلل من شـــأن التاريخ. وبهذا تقلل من شأن المؤرخين. لنفترض جدلا أن المسكين روبسون حـــاز اهتمام التاريخ. فالمؤرخون دائما مـــا واجههم الافتقار إلى دليل مباشـــر. وهذا ما اعتادوا عليـــه. ولا تنس في حالتنا هذه ســـيكون هناك اســـتجواب، وبهذا تقرير الطبيب الشرعي. ربما كان روبسون يمتلك دفتر يوميات أو رسائل مكتوبة، أو أنه أجرى بعض المكالمـــات الهاتفية التي يمكن تذكـــر محتواها. وقد يكون والداه قد ردا على رســـائل تعزية وصلتهما. وبعد خمســـين سنة مـــن الآن، آخذين بعين الاعتبار معدل الحياة المتوقع، فإن القليل من أصدقاء المدرسة سيكونون موجودين لنجري مقابلات معهم. إن المشكلة أقل رهبة مما تتخيل».

«ولكـــن لا شـــيء يـمكن أن يعـــوض غيـــاب شـــهادة روبسون يا سيدي».

«بطريقة ما، لا. لكن بالدرجة نفســـها يحتاج المؤرخون إلى أن يتناولوا تفسير أحد المشاركين في الحدث للأحداث التي شهدها بدرجة من الشـــك. غالبا ما تكون الإفادة التي تطلق بعين ناظرة إلى المستقبل مشكوكا فيها».

«إن كنت تظن ذلك، يا سيدي».

«ويمكن أن نســـتنج الحالات الذهنية من الأفعال. فالطاغية نادرا ما يرســـل ملاحظة مكتوبة يطلـــب فيها القضاء على أحد الأعداء».

«إن كنت تظن ذلك، يا سيدي».

«نعم أظن ذلك».

هل كان ذلك حوارهما بالضبط؟ على أغلب الظن لا. مع ذلك كان ذلك أفضل ما أستطيع أن أتذكره عن ذلك الحوار.

تخرجنا في المدرسة، ووعد كل منا الآخر بصداقة تدوم مدى الحياة، ومضى كل في سبيله في الحياة. أدريان، مما لم يثر دهشة أحد، فاز ببعثة إلى كيمبردج. أنا درست التاريخ في جامعة بريستول، كولن التحق بجامعة سسكس، وألكس عمل في شركة والده. كتبنا رسائل لبعضنا، كما كان يفعل الناس - حتى الشباب منهم - في تلك الأيام. لكن كنا قليلي الخبرة بشكل الرسائل، ولهذا غالبا ما كانت درجة عالية من الوعي بالذات تسبق الحاجة الملحة إلى المحتوى. فحين نبدأ كانت العبارة «بعد أن تلقينا خطابكم المؤرخ في السابع عشر» تبدو لبعض من الوقت ظريفة جدا.

أقسمنا على أن نلتقي في كل مرة عاد ثلاثتنا الملتحقون بالجامعة إلى البيت في العطل، ومع ذلك لم تنجح خطتنا دائما. كما أن كتابة الرسائل لبعضنا يبدو أنها غيرت من معايير ديناميكية صداقتنا. فقد كتب ثلاثتنا الأصليون رسائل أقل لبعضهم وبحماسة أقل مما كتبناه لأدريان. كنا نسعى وراء لفت انتباهه وموافقته، كنا نطلب فضله ونخبره أفضل قصصنا أولا، فكل واحد منا اعتقد أنه - أو يستحق أن يكون - الأقرب إليه. على الرغم من أننا كنا أنفسنا نتعرف على أصدقاء جدد، بيد أننا كنا مقتنعين بشكل ما أن أدريان لم يفعل ذلك، وأن ثلاثتنا

مازلنا أقرب أصدقائه، وأنه يعتمد علينا. أكان ذلك طريقة فقط لإخفاء حقيقة أننا نحن من نعتمد عليه؟

ثم أخذتنا الحياة في سبل مختلفة، وتسارع الزمن. بكلمات أخرى، وجدت حبيبة لي. بالطبع، كنت قد تعرفت على بعض الفتيات قبل ذلك، ولكن إما أن ثقتهن بأنفسهن كانت تجعلني أشعر بأني أخرق، أو أن توترهن زاد من توتري. يبدو أنه كانت هناك شيفرة ذكورية ما تتوارث من الشباب العشريني المصقول اجتماعيا إلى الشباب في الثامنة عشرة من عمرهم الخجولين، وحين تتقنها فإنك ستتمكن من «التعرف» على الفتيات، وفي ظروف معينة، أن «تجد سبيلك» معهن. ولكن لم أتعلمها أو أفهمها قط، وعلى الأغلب مازلت كذلك. فقد كان «أسلوبي» ينطوي على ألا يكون لي أسلوب. آخرون، وبلا شك كانوا على حق، اعتبروه أسلوبا أحمق. حتى أن المسار المفترض أنه بسيط الذي تألف من هل ترغبين في مشروب، تودين الرقص، هلا أسير معك إلى البيت، هل ترغبين في القهوة، كان ينطوي على شجاعة لم أكن أتصف بها. فكنت فقط أتجول وأحاول أن أطلق عبارات مثيرة للاهتمام بينما أتوقع أن أفسد كل شيء. أذكر أني كنت أشعر بالحزن بينما كنت أتناول مشروبا في إحدى الحفلات في السنة الأولى حين سألت فتاة مارة بتعاطف إن كنت على ما يرام، فوجدت نفسي مجيبا «أظن أني مكتئب بشكل هوسي» لأنه في ذلك الحين بدت العبارة أكثر مناسبة من «أشعر بقليل من الحزن». وحين أجابت «لست شخصا آخر» ومضت مسرعة، أدركت أنه، بدلا من أن أبرز بين الحشد المبتهج، فقد استخدمت

أسوأ عبارة في العالم للتعرف على فتاة.

كانت حبيبتي تدعى فيرونكا ماري إليزابيث فورد، وهي معلومات (أعني أسماءها الوسطى) استغرقت مني شهرين لاستخلاصها. كانت تدرس الإسبانية، وتحب الشعر، وكان أبوها موظفا حكوميا. كان طولها نحو خمس أقدام وإنشين، وكان باطنا ساقيها مستديرين قويين، وشعرها ضاربا للبني مسترسلا على كتفيها، وعيناها زرقاوين رماديتين خلف نظارات ذات إطار أزرق، وتعلو وجهها ابتسامة خاطفة ولكنها متحفظة. كنت أظن أنها جميلة. على الأغلب كنت سأرى كل فتاة لا تهرب مني جميلة. لم أحاول أن أخبرها بأني أشعر بالحزن لأني لم أكن كذلك. كانت تمتلك آلة مسجلة لسماع الأسطوانات التي امتلكها لدانسيت، وكان ذوقها الموسيقي أفضل مني، فهي كانت تزدري دفوراك وتشايكوفسكي اللذين كنت أهيم بهما، وكانت تمتلك تسجيلات لليد والكورال. كانت تلقي نظرة على مجموعتي من التسجيلات وهي تبتسم أحيانا ابتسامة سريعة، لكن في الأغلب كانت عابسة. وحقيقة إخفائي عنها مقطوعة الاستهلال لعام ١٨١٢ والمدرج الصوتي لفيلم «رجل وامرأة» لم ينقذني. كانت هناك مادة مريبة كافية قبل حتى أن تصل إلى قسم موسيقى البوب المكتظ: إلفيس، البيتلز، الستونز (ليس أن أحدا قد يعترض عليها بالتأكيد)، لكن أيضا الهوليز والأنيمالز والمودي بلوز ومجموعة تتألف من أسطوانتين لدونوفان عنوانها (هدية من زهرة لحديقة).

«هل تحب هذه الأشياء؟» سألت بنبرة محايدة.

«إنها جيدة للرقص» أجبت بشيء من الدفاعية.

«هل ترقص على هذه الموسيقى؟ هنا؟ في غرفتك؟ وحدك؟».

«لا، لا أفعل ذلك» رغم أني قمت بذلك بالطبع.

قالت: «أنا لا أرقص»، وكان جزء منها يتصرف مثل أنثروبولوجي، وجزء آخر يتصرف كواضع لقواعد أي علاقة لنا إن كنا سنخرج في موعد معا.

من الأفضل أن أوضح ماذا يعني «الخروج» في موعد في تلك الأيام، لأن الزمن قد غير هذا المعنى. كنت أتحدث أخيرا لإحدى الصديقات جاءتها ابنتها يوما وهي متضايقة. كانت في سنتها الثانية في الجامعة وكانت تصاحب شابا كان - بشكل علني وبعلمها - يصاحب أخريات في الوقت نفسه. ما كان يقوم به هو أنه كان يخضعهن للتجربة معا حتى يقرر فيما بعد من التي سيرفض الخروج معها. وكانت الابنة متضايقة ليس بسبب نظامه - برغم أنها كانت نصف مدركة أنه مجحف - بقدر ما كانت متضايقة من أنها لم تكن الفتاة التي اختارها أخيرا.

جعلني هذا أشعر كأني واحد ممن بقي على قيد الحياة من ثقافة قديمة عفى عليها الزمن كان أفرادها مازالوا ينحتون حبات اللفت كأحد أشكال التبادل المالي. في «أيامي» - برغم أني لم أدع أني أملك تلك الأيام ومازلت لا أدعي ذلك في أي الحاضر - هذا ما كان يحدث: تلتقي بفتاة، تنجذب إليها، تحاول أن تفوز بحظوتها، تدعوها إلى بعض المناسبات الاجتماعية - المقهى على سبيل المثال - ثم تطلب منها الخروج معا وحدكما، ثم مرة أخرى، أنت بشكل ما رسميا «تتواعد» معها. عندما ترتبط معها

بشكل شبه علني حينها فقط تكتشف ما قد تكون عليه سياستها في المواعدة. وأحيانا كان هذا يعني أن جسـدها سيكون مصونا بإحكام مثل منطقة حظر صيد السمك.

كانت الفتيات - أو النسـاء - اللاتـي عرفتهن (نعم، لم تكن فيرونكا الوحيدة) مطمئنات بشـأن أجسادهن. وإن كانت بعض الضوابط تفرض على جسـدي. لا أقصد أن أقول، بالمناسبة إن التجربـة غير الكاملة لم تكن مثيرة أو حتى مخيبة للأمل. وعدا ذلك، كانت هؤلاء الفتيات يسمحن بأكثر مما سمحن به أمهاتهن، وكنـت أحصل على أكثر مما حصل عليه أبي. على الأقل هذا ما افترضته. وأي شـيء كان أفضل من لا شـيء. يستثنى من ذلك في تلك الأوقـات، كولن وألكس اللذان ارتبطا مع فتاتين لم تكن لديهما سياسـة منطقـة حظر الصيد - أو هـذا ما لمحا به - وبالنسبة إلى هذا الجانب لم يتغير الكثير في اليوم الحاضر.

لم أكن بتولا تماما، إن كنت تتساءل عن ذلك. في المرحلة بين المدرسة والجامعة مررت بتجربتين مثقفتين، كانت الإثارة فيهما أكبـر من الأثر الـذي خلفتاه. وبهذا ما حـدث بعد ذلك جعلني أشـعر أكثر غرابة: كلما أحببت فتاة أكثر، وكلما كان انسـجامنا أفضل، قلت الفرص في تبادل الغرام، هذا ما بدا لي. ما لم يكن، بالطبع - ولم أعبر عن هذه الفكرة إلا فيما بعد - هناك شـيء في داخلي كان يجذب إلي النسـاء اللاتـي كن يقلن لا. لكن هل يمكن لهذه الغريزة الشاذة أن توجد؟

«لـم لا؟» قد تسـأل ذلك حين ترى يدا تحكـم قبضتها على معصمي.

«لا أشعر بأن الأمر صحيح».

كان هذا حوارا سمعته مرات عديدة وأنا أقف أمام نار تصدر من غاز يضاهيها صفير إبريق. ولم يكن هناك اختلاف على المشاعر لأن النساء خبيرات بها، والرجال فجون قليلو الدراية. لهذا إن عبارة «لا أشعر بأن الأمر صحيح» كانت تتمتع بقوة إقناع لا تفند أكثر من اللجوء إلى مذهب كنسي أو نصيحة أموية. وقد تقول، ألم تكن تلك الفترة هي فترة الستينيات؟ نعم، هذا صحيح، لكن بالنسبة إلى بعض الناس فقط، وفي أجزاء معينة من البلد فقط.

رفوف كتبي كانت أكثر حظا مع فيرونكا من مجموعة التسجيلات التي اقتنيتها. في تلك الأيام كانت الكتب ورقية الغلاف تصدر في حلل تقليدية: الكتب البرتقالية الصادرة عن دار بينغون للنشر مخصصة للنثر القصصي، والكتب الزرقاء الصادرة عن دار بيليكن للنشر مخصصة للنثر غير القصصي. إن طغيان اللون الأزرق على البرتقالي على رفك كان دليلا على الجدية. بشكل عام، كان لدي العدد الكافي من العناوين المطلوبة: ريتشارد هوغارت، ستيفن رانسيمن، هيوزنغا، إيسنك، إيمبسون... بالإضافة إلى كتاب بيشوب جون روبنسون (أقسم بالله) الموضوع بالقرب من كتب لاري للقصص الكرتونية. جاملتني فيرونكا مفترضة أني قرأت جميع هذه الكتب، ولم تشك في أن معظم الكتب المهترئة كانت كتبا مستخدمة حين اشتريتها.

كانت رفوفها تحتوي على الكثير من كتب الشعر، بشكل مجلدات وكتيبات: إليوت، أودن، ماكنيس، ستيفي سميث، توم

غـن، تيد هيـوز. كانت هناك طبعـات للنادي اليسـاري للكتب لأورويل وكويستلر، وبعض من روايات القرن التاسع عشر، وكتابان للأطفال لآرثر راكهامز، والكتاب الذي يؤنسـها (اسـتوليت على القلعة). لم أشـك للحظة في أنها لم تقرأ كل هذه الكتب، أو أنها لم تكن الكتب المطلوبة لامتلاكها. بالإضافة إلى ذلك، بدت الكتب أنها اسـتمرار عضوي لعقلها وشخصيتها، في حين أن كتبي بدت لي أنها منفصلة وظيفيا تحاول جاهدة أن تصف شـخصية أملت أن أنتهي إليها. هذا التباين أصابني بشيء من الذعر، وبينما كنت أنظر إلى رف الشعر خطر في بالي سطر لفيل ديكسون.

«بالطبع الكل يتساءل ما الذي سيفعله تيد هيوز حين يستنفد جميع الحيوانات».

«أليس كذلك؟».

«هذا ما علمته»، قلت متحررا. في فم ديكسـون بدا السـطر ظريفا ورفيع المستوى، في فمي كان مجرد تصنع.

قالت معلمة لي: «لا يسـتنفد الشـعراء مادتهم كما الحال مع الروائيين لأنهم لا يعتمدون على مادتهم بالطريقة نفسـها. وأنت تعامله كأنه أحد علمـاء الحيوان، أليس كذلك؟ لكن حتى علماء الحيوان لا يستنفدون الحيوانات، أليس كذلك؟».

كانت تنظر إلي رافعة أحد حواجبها فوق إطار نظارتها. كانت تكبرني بخمسـة أشـهر، وأحيانا كانت تجعلني أشعر كأنها أكبر مني بخمس سنين.

«إن ذلـك مجرد شـيء كان يقوله معلم اللغـة الإنجليزية في مدرستي».

«حسنا، أنت الآن في الجامعة وعليك أن تكون أفكارك الخاصة بك، أليس ذلك ما يجب أن نفعله؟».

كان هناك شيء ما مرتبط بكلمة «نحن» جعلني أشك في أني لم أفسد كل شيء، كانت تحاول فقط أن تحسن مني - ومن أنا لأعترض على ذلك؟ أحد أول الأشياء التي سألتني عنها هو لم أرتدي ساعتي ووجهها على باطن رسغي. لم أستطع تبرير ذلك، لهذا أدرت وجه الساعة إلى ظهر رسغي كما يفعل الناس العاديون الراشدون.

استقررت في روتين مرض من العمل وقضاء أوقات فراغي مع فيرونكا والعودة إلى غرفتي في مهجع الطلبة، التقارب اليومي بيننا جعلني أشعر بالفخر لمعرفتي عن المكياج، وموضة الملابس والغموض الذي يكتنف طمث المرأة ونتائجه. فصرت أحسد كل ما يذكرني بشكل اعتيادي بما هو أنثوي بشكل كامل وهذا مرتبط بدورة الطبيعة العظمى. ولعلني عبرت عن ذلك بهذه الطريقة السيئة حين حاولت أن أفسر ما أشعر به.

«أنك تجعل مما لا تمتلكه شيئا مثاليا. كل ما في الأمر أنها تعلمك أنك لست حاملا».

بالنظر إلى علاقتنا، فقد أذهلني أن ما قالته لا يخلو من الوقاحة.

«حسنا، آمل أننا لا نعيش في الناصرة».

ثم تبع ذلك واحدة من تلك الوقفات حين يوافق الاثنان بلباقة على عدم مناقشة أمر ما. وماذا كان هناك للمناقشة؟ ربما فقط الشروط غير المكتوبة للمقايضة. من وجهة نظري، حقيقة أننا

لـــم نمارس الحب أعفاني من التفكيـــر في العلاقة أكثر من أنها شـــراكة مع امرأة كانت، وفق دورها في المقايضة، ســـتطلب من الرجل أن يوضح إلى أين تأخذهم تلك العلاقة. على الأقل، هذا مـــا كنت أظنه عن الصفقة. لكن كنت مخطئا في أكثر الأشـــياء، حينها والآن.

في إحدى عطل نهاية الأســـبوع أثناء العطلة الجامعية دعيت لألتقي بعائلتها. كانوا يعيشون في كنت، على أطرافها عند حدود أوربينغتون، في إحدى تلك الضواحي التي توقفت عن التطور في اللحظة الأخيرة، ومنذ ذلك الحين اكتســـبت صفة الريفية. على متن القطار القادم من تشـــارينغ كـــروس، كنت قلقا من أن تكون حقيبتي - الوحيدة التي أملكها - كبيرة جدا بحيث تجعلني أبدو كأني سارق محتمل. في المحطة عرفتني فيرونكا على أبيها الذي فتح صندوق سيارته وتناول الحقيبة من يدي وضحك.

«يبدو أنك تخطط للانتقال أيها الشاب».

كان رجلا ضخما مكتنزا أحمر الوجه. وقد بدا لي أنه فج. هل كانت تلك رائحة مشروب تنبعث من أنفاسه؟ وفي هذا الوقت من اليوم؟ كيف يمكن لذلك الرجل أن يكون أبا لتلك الابنة الملائكية؟

قاد سيارته من طراز هامبر سوبر سنايب وهو يطلق تنهيدات منزعجا من حماقات الآخرين. جلســـت في الخلف وحدي. كان بين الحين والآخر يشـــير إلى أشـــياء في الخـــارج، مفترضا أنه يتحدث إلي، برغم أني لم أعرف فيما إذا كان علي أن أرد أم لا.

«كاتدرائية القديس مايكل، أزال عنها الكثير من الطوب والصوان المرممـــون الفكتوريـــون». «ذلك مقهانا كافيه رويـــال - فويلا!»،

«لاحظ على يمينـــك محل الكحول المعــروف». نظرت إلى وجه فيرونكا بحثا عن إشارة منها، ولكن لم أحصل على شيء.

كانوا يعيشـــون في منزل منعزل من طــوب أحمر، معلق عليه بلاط، وهناك شريط من الحصى أمامه. فتح السيد فورد الباب الأمامي ونادى بأعلى صوته ولكن ليس على أحد بشكل خاص.

«لقد جاء الشاب ليمكث شهرا».

انتبهت إلى اللمعان القوي علــى الأثاث قاتم اللون، واللمعان القــوي على أوراق نبتة في إناء مزخرف. أمســك والد فيرونكا بحقيبتي كأنه يقــوم بواجب الضيافة القديم، وحملها وهو يبالغ في تصنع ثقلها إلى غرفة في العلية ثم رماها على السرير. أشار إلى حوض حديدي صغير.

«اقض حاجتك هناك أثناء الليل إن رغبت في ذلك».

أومــأت مجيبا. لم أســتطع أن أعــرف إن كان يتصرف من منطلــق الصداقة بين الذكــور، أو أنه كان يعاملنـــي كحثالة من الطبقة المتدنية.

كان من السهل فهم جاك، شقيق فيرونكا: فقد كان أحد هؤلاء الشباب الرياضيين موفوري الصحة يضحك على معظم الأشياء ويغيظ أخته الصغيرة. تصرف معي كأني موضوع مثير لشيء من الفضــول، ولكن لم أكن بأي حال أول من عرض أمامه لتفحصه. تجاهلت أم فيرونكا كل الكلام الذي كان يدور حولها، وســألتني عن دراســتي، وكانت كثيرا ما تختفي فـــي المطبخ. أفترض أنها كانــت في بداية الأربعينات من عمرهـــا، على الرغم بالطبع من أنها بدت لي كأنها أوغلت في الخمسينات، وكذلك الأمر بالنسبة

إلى زوجها. لم تشـبه فيرونكا كثيرا، فقـد كان وجهها أعرض، وكانت تربط شـعرها من فوق جبهتها بشـريط، طولها أكثر من المتوسط بقليل، وبطريقة ما تتسم بشخصية فنية، برغم أنه كيف يمكن لتلك السـمة أن تفصح عن نفسها - أوشحة ملونة، سلوك يدل على تشتت الانتباه، التمتمة بألحان الأوبرا، أو ثلاثتهما معا - كان شيئا لم أستطع التأكد منه.

كنـت مضطربا بشـدة إلى درجة أني أمضيـت نهاية عطلة الأسـبوع بطولهـا أعانـي من الإمسـاك، هذه هـي الحقيقة الرئيسـية المعتمدة على الذاكرة، أما بقية الأحداث فهي تتألف من انطباعات وأنصاف الذكريات التي لهذا قد تتسم بالأنانية، فمثـلا، كيف أن فيرونكا، على الرغم من أنها دعتني، بدت في البداية كأنها تتفاداني وأنها انضمت لعائلتها في تفحصي، على الرغم من أني لم أكن متأكدا فيما إذا كان ذلك سـببا أو نتيجة لعدم طمأنينتي. وعلى العشاء في تلك الجمعة كان هناك بعض التسـاؤلات عن مؤهلاتي الاجتماعية والفكرية، شـعرت كأني أقف أمام محكمة للاسـتجواب. بعد ذلك شاهدنا الأخبار في التلفاز وناقشـنا بعشـوائية أخبار العالم حتـى وقت النوم. لو كنا شـخوصا في رواية لكان هناك بعض التسـلل بين الطوابق للحصول على عناق حميم بعد أن أغلقت العائلة الأبواب لتنام. لكن لم نكن كذلك، حتى أن فيرونكا لم تقبلني قبلة تصبح على خير في أول مساء، أو اختلقت الأعذار بشأن المناشف وتأكدت مـن أن لدي كل ما أحتاج إليه. لعلها كانت خائفة من سـخرية أخيها. ولهذا فقد خلعت ملابسـي واغتسـلت وتبولت باندفاع

في ذلـك الحوض وارتديت بيجامتي وبقيـت لمدة طويلة يقظا وأنا مستلق.

حين نزلت لتناول الفطور، كانت السـيدة فورد وحدها. فقد ذهب البقية لممارسة رياضة المشي، حيث طمأنت فيرونكا الجميع بأني أرغب في البقاء نائما. لم أستطع إخفاء ردة فعلي لهذا الأمر بشكل جيد، حين شعرت بأن السيدة فورد كانت تتفحصني بينما كانت تصنع اللحم المقدد مع البيـض، وتقلي المحتويات بطريقة طائشة وهي تكسـر مح إحدى البيضات. لم تكن لدي خبرة في التحدث مع أمهات صديقاتي.

«هل عشـت هنا فترة طويلة؟»، سألت في النهاية وأنا أعرف الإجابة مسبقا.

توقفت وصبت لنفسـها قدحا من الشـاي، وكسـرت بيضة أخرى في المقلاة واسـتندت إلى خزانة مكتظة بالأطباق وقالت: «لا تجعل فيرونكا تنجو بالكثير».

لم أعرف كيف أجيب. أعلي أن أشـعر بالإهانة من مثل هذا التدخل فـي علاقتنا، أم أنخـرط في مـزاج اعترافي وأناقش فيرونكا؟ ولهذا فقد قلت بشيء من اللباقة:

«ما الذي تعنينه، سيدة فورد؟».

نظرت إلي وابتسمت بطريقة غير متكبرة وهزت رأسها قليلا، وقالت «لقد عشنا هنا عشر سنوات».

وهكذا في نهاية المطاف صـرت معها كحال من في البحر، كما هو أمري مع البقيـة، بيد أنها بدت كأنها أحبتني. وضعت بيضـة أخرى في طبقـي، رغم أني لم أطلب ذلـك ولم أرغب

فيه. وكانت بقايا البيضة المكسورة لاتزال في المقلاة، فقلبتها بلامبالاة في سلة النفايات، ثم ألقت المقلاة الساخنة إلى منتصفها في الحوض الرطب. مار الماء وارتفع البخار بسبب ذلك، وضحكت هي، كأنها استمتعت بالتسبب في هذا الدمار البسيط.

حين عادت فيرونكا والرجال إلى البيت، كنت أتوقع المزيد من التحقيق، وربما حتى خدعة أو لعبة ما، بدلا من ذلك كانت هناك تساؤلات مؤدبة عن نومي وراحتي. كان من المفترض أن هذا الأمر يجعلني أشعر أكثر بأني مقبول لديهم، ولكن بدا الأمر أكثر كأنهم سئموا مني، وأضحت نهاية الأسبوع كأنها مجرد شيء عليهم اجتيازه. لعل ذلك كان مجرد خوف. ولكن من ناحية إيجابية، صارت فيرونكا أكثر ودا بشكل علني: ونحن نحتسي الشاي كانت سعيدة وهي تضع يدها على ذراعي وتلهو بشعري. في لحظة ما التفتت إلى أبيها وقالت:

«إنه يصلح، أليس كذلك؟».

غمزني جاك، ولكن لم أرد غمزته. عوضا عن ذلك شعر جزء مني بالرغبة في سرقة بعض المناشف أو تلطيخ السجاد بالطين.

ومع ذلك بقيت الأمور في أغلب الأحيان عادية تقريبا. في ذلك المساء صعدت فيرونكا معي وقبلتني قبلة ما قبل النوم بشكل لائق. غداء يوم الأحد كان هناك ضأن مشوي يخرج منه غصينات ضخمة من إكليل الجبل مثل عيدان شجرة عيد الميلاد. لأن والدي علماني حسن التصرف، أخبرتهم كم كان الضأن شهيا. ثم ضبطت جاك وهو يغمز أباه كأنه كان يقول يا له من

جبان. لكن السـيد فورد قال فرحا «أنا أثني على ذلك»، بينما شكرتني السيدة فورد.

حين نزلت لأودعهم، أمسك السيد فورد حقيبتي وقال لزوجته «أنا متأكد أنك قمت بعد الملاعق، يا سيدتي». لم تزعج نفسها بالإجابة واكتفت بالابتسام لي، كأننا نشترك في سر ما. لم يظهر جاك ليودعني، جلست فيرونكا وأبوها في مقدمة السيارة. جلست أنا في الخلف مرة أخرى. كانت السيدة فورد تستند إلى حائط الرواق، في حين هبطت أشعة الشمس على نبتة الوستاريه التي تتسلق المنزل فوق رأسها. حين أدار السيد فورد السيارة وسارت عجلاتها على الحصى لوحت مودعا لها وردت، لكن ليس كما يفعل الناس عادة، براحة اليد، بل بإيماءة أفقية نوعا ما عند مستوى خصرها. تمنيت لو استطعت أن أتحدث معها أكثر.

لكي أمنع السيد فورد من تعريفي على عجائب تشيسلهيرست للمرة الثانية، قلت لفيرونكا «أحب والدتك».

«يبدو أن هناك منافسا لك، يا فرون»، قال السيد فورد وهو يأخذ نفسا بطريقة مسرحية، «حين أفكر في الموضوع أظن أنني أنا أيضا صار لي منافس. فلنتبارز بالمسدسات وقت الفجر».

تأخر قطاري، إذ أبطأته أعمال الصيانة الاعتيادية ليوم الأحد. وصلت إلى البيت في أول المساء. أذكر أنني مكثت في المرحاض لمدة طويلة.

بعد أسبوع أو نحو ذلك، قدمت فيرونكا إلى البلدة لكي أقدمها لعصبتي من المدرسة. وتبين أنه كان يوما بلا هدف لم يكن

أحد منا يرغب في تولى مسـؤوليته. تجولنا في معرض تيت، ثم مشـينا إلى قصر باكينغهام ودخلنا إلى هايد بارك متجهين إلى زاوية الخطباء. لكن لم يكن هناك خطباء يتكلمون، ولهذا تجولنا في شارع أكسـفورد وألقينا نظرة على المحلات حتى انتهينا في ميدان ترافالغار بين الأسود. كان أي شخص سيعتقد أننا سواح.

فـي البداية كنت أراقب لأرى كيف سـيتصرف أصدقائي مع فيرونكا، لكن سـرعان ما صرت مهتما برأي فيرونكا فيهم. لقد ضحكت على نكات كولن بأريحية أكثر مما ضحكت على نكاتي، مما أزعجني، وسـألت عن عمل أبيه (قال لها، التأمين البحري، مما أثار دهشتي). وبدت سعيدة حين تركت أدريان حتى النهاية. كنـت قد أخبرتها أنـه يدرس في كيمبـردج، وذكرت له مختلف الأسماء. حين سمع اثنين من هذه الأسماء أومأ وقال:

«نعم، أعرف أي نوعية هؤلاء الأشخاص».

بـدت إجابتـه وقحة بالنسـبة إلي، ولكن لم تشـعر فيرونكا بالإهانة. عوضـا عن ذلك ذكرت كليات وعمداء كليات ومحلات شاي بطريقة جعلتني أشعر بأنني مغيب من الحوار.

سألتها: «كيف تعرفين الكثير عن المكان؟ ».

«إنه المكان الذي يدرس فيه جاك».

«جاك؟».

«أخي، أتتذكر؟».

«دعيني أفكر... ألم يكن ذلك الرجل الأصغر سنا من أبيك؟».

ظننت أن تلك نكتة لا بأس بها، ولكن حتى أنها لم تبتسم.

«ماذا يدرس جاك؟» سألتها محاولا أن أبدأ موضوعا للنقاش.

أجابت: «العلوم الأخلاقية، مثل أدريان».

أعرف دراســة أدريان اللعينة، أشكرك كثيرا، أردت أن أقول ذلك. لكن تجهمت لبرهة وتحدثت مع كولن عن الأفلام.

مــع نهاية عصر اليــوم التقطنا صــورا، طلبت صــورة «مع أصدقائــي». وقف ثلاثتهم بأدب في صــف، بينما قامت بإعادة ترتيبنــا: أدريان وكولن، الأطول بيننا، على جانبيها، وألكس يقف خلــف كولن. جعلتها الصورة تبدو كأنها أنحف مما هي عليه في الواقع. بعد ســنوات عديدة، حين تفحصــت الصورة مرة أخرى باحثا عن إجابــات، تعجبت من حقيقة أنها لم ترتد كعبا من أي طــول كان. كنت قد قــرأت في مكان ما أنــه إذا أردت أن ينتبه الناس لمــا تقوله، لا ترفع صوتك بل أخفضه: هذا ما يســتحوذ على الانتباه فعلا. لعل الخدعة هي نفســها مع الطول. برغم أن مســألة أنها كانت تقوم بخدعة هو أمر لازلت لم أستبينه. حين كنــت أخرج معها كانت أفعالهــا غريزية. لكن بعد ذلك أصبحت مقاوما للفكرة برمتها أن النساء كن أو يمكنهن أن يكن مستغلات. هــذا قد يعطيك فكرة عني أكثر مما يعطيك عنها. وحتى لو كان فــي مقدوري أن أقــرر، في هذه المرحلة المتأخــرة، أنها، وكانت دائما، حذرة، لســت متأكدا أن ذلك قد يســاعد في الأمر. وما أعنيه هنا: قد يساعدني.

تمشينا معها حتى تشــارينغ كروس ولوحنا لها مودعين وهي ذاهبة إلى تشيسلهيرســت بطريقة ملحمية ساخرة، كما لو أنها مســافرة إلى سمرقند. ثم جلســنا في المقهى في فندق المحطة لنحتسي الشراب وكنا نشعر بأننا قد نضجنا جدا.

«فتاة لطيفة»، قال كولن.

«لطيفة جدا»، أضاف ألكس.

«هـــذا واضح من وجهة نظر فلســفية»، أوشــكت أن أصرخ. حسنا، لقد كنت مســتشارا بعض الشيء. التفت إلى ألكس. «هل هناك أي إضافة إلى لطيفة جدا؟».

«أنت في الواقع لســت في حاجة إلي لتهنئتك، أليـس كذلك يا أنتوني؟».

«ولماذا لست في حاجة إلى ذلك؟».

«إذن بالطبع إني أهنئك».

لكن لسان حاله بدا كأنه ينتقد حاجتي وينتقد الاثنين الآخرين لإشــباعهما حاجتي. شعرت بالذعر قليلا. لم أكن أريد لليوم أن ينتهــي. بالنظر للوراء لم يكن اليوم الذي انتهى ولكن أربعتنا من بدأ بالانتهاء.

«إذن فقد التقيت بالأخ جاك في كيمبردج؟».

«لم ألتق به، لا، ولا أتوقع أن ألتقي به. إنه في سنته الأخيرة. لكن ســمعت عنه، قرأت عنه في مقالة في إحدى المجلات. وعن الناس الذين كان يرافقهم، نعم».

من الواضــح أنه كان يود أن يترك الأمر عند ذلك الحد، ولم أرده أن يفعل ذلك.

«إذن ما رأيك فيه؟».

توقــف أدريان. أخذ رشــفة من الشــراب ثم قــال باندفاع مفاجــئ: «أكره طريقة الإنجليز في عدم جديتهم بالنســبة إلى كونهم جديين. إني أكره ذلك حقا».

لو كنا في مزاج آخر لكنت فسرت ذلك على أنه ضربة ضدنا جميعا. بدلا من ذلك شعرت بلهجة دفاعية.

تابعت أنا وفيرونكا الخروج معا طوال السنوات التالية، واكتشفت شيئا لم أستطع فهمه، كان من المفترض أن أشعر بأني أكثر قربا منها، لكن لم أشعر بذلك.

«إذن هل فكرت يوما إلى أين تسير علاقتنا؟».

قالت ذلك دون تمهيد أو سابق إنذار. كانت قد جاءت لنشرب الشاي، وأحضرت معها شرائح من كعكة الفواكه.

«هل تفكرين أنت في ذلك؟».

«أنا سألت أولا».

«هل عليها أن تقودنا إلى وجهة ما؟».

«أليس ذلك ما تفعله العلاقات؟».

«لا أعرف. ليس لدي ما يكفي منها».

قالت «انظر، توني. أنا لا أركد».

ظللت أفكر في ذلك فترة من الزمن، أو حاولت. لكن بدلا من ذلك ظللت أرى صورة مياه راكدة يعلوها حثالة سميكة يحلق البعوض فوقها. أدركت أني لم أكن بتلك المهارة في مناقشة تلك الأمور.

«إذن أنت تظنين أننا في حالة ركود؟».

لم تقم بحركة رفع حاجبها فوق إطار نظارتها، وهي حركة لم أعد أراها لطيفة.

تابعت: «ألا يوجد شيء وسط بين الركود والسير إلى مكان ما؟».

«مثل؟».

«مثل أن نستمتع بوقتنا. استمتع بيومك وما شابه ذلك؟».

لكن مجرد قولي ذلك جعلني أتساءل إن كنت أستمتع باليوم بعد ذلك. فكرت أيضا: ماذا تريد مني أن أقول؟

«وهل تعتقد أننا يلائم أحدنا الآخر؟».

«تسألينني أسئلة كأنك تعرفين إجاباتها. أو كأنك تعرفين الإجابة التي تريدين. إذن لم لا تخبريني الإجابة وسأعلمك إن كانت هذه إجابتي أيضا».

«أنت جبان جدا، ألست كذلك يا توني؟».

«أظن أني أكثر ميلا... للمسالمة».

«إذن لن أرغب في هز صورتك عن نفسك».

انتهينا من احتساء الشاي. لففت الشريحتين المتبقيتين من الكعكة ووضعتهما في صندوق النفايات. قبلتني فيرونكا على زاوية شفتاي وليس وسطهما، ثم غادرت. في ذاكرتي كانت تلك بداية النهاية لعلاقتنا. أو أني تذكرت العلاقة بهذه الطريقة حتى أجعلها تبدو كذلك؟ لو سئلت في محكمة عما حدث وما قيل، لأمكنني فقط أن أشهد على الكلمات «تسير»، و «يركد» و«ميلا للمسالمة». لم أكن أرى نفسي ميالا للمسالمة - أو العكس - حتى ذلك الحين. كنت أيضا سأحلف أن علبة البسكويت كانت حقيقة، كان لونها أحمر خمريا وكان عليها صورة للملكة وهي تبتسم.

لا أريد أن أخلف الانطباع أن كل ما فعلته في بريستول هو العمل ومواعدة فيرونكا. بل بعض الذكريات الأخرى تعاودني. إحداها - حدث واحد واضح وفريد - كانت الليلة التي شهدت

فيهــا (موجة نهر ســيفرن). اعتادت الصحيفــة المحلية طباعة جدول يشــير إلــى الزمان والمكان الذي يمكنك فيه مشــاهدتها بشكل واضح. في المرة الأولى التي حاولت فيها كانت المياه كأنها لم تستجب لتعليماتها. ثم، في إحدى الأمسيات في منسترورث، انتظر مجموعة منا على حافة النهر حتى بعد منتصف الليل، وفي النهاية كوفئنا. لساعة أو ساعتين شاهدنا النهر يتدفق بانسياب إلى البحر حاله حال الأنهار الأخرى الجيدة. ســاعد ضوء النهر المتقطع الاستكشــافات العرضية لبعض المشاعل القوية. ثم كان هناك همس، وتطاول للأعناق، وتلاشت جميع الأفكار عن البلل والبرد حين بدا النهر ببساطة كأنه يغير رأيه، وكانت موجة، على ارتفاع قدمين أو ثــلاث تتجه نحونا مندفعة على امتداد عرضه من الحافة إلى الحافة. صار هذا الامتلاء المرتفع على مستوانا، واندفع متجاوزا إيانا وانحنى هابطا على مســافة منا، بعض من الأصدقاء أطلقوا لأرجلهم العنان وهم يصرخون ويشتمون ويقعون على الأرض حين تسبقهم الموجة. بقيت على حافة النهر وحدي. لا أظن أني أستطيع أن أعبر بوضوح عن التأثير الذي خلفته تلك اللحظة فــي. لم تكــن الموجــة كعــاصفة أو زلزال (ولا يعني أني شــهدت أيا منهما)، حين تكون الطبيعــة عنيفة ومدمرة لتعرفنا بقدرنــا. بل كانت أكثر منها زعزعة لأنها بدت خاطئة جدا، كأن رافعة صغيرة ما للكون قــد تم الضغط عليها، وهنا، فقط أثناء تلك الدقائق، عكســت الطبيعة مســارها، ومعها الزمن انعكس مســاره. وحين ترى تلك الظاهرة بعد هبوط الظلام تصبح أكثر غموضا، أكثر أخروية.

بعد أن انفصلنا تواصلنا جسديا.

نعم، أعرف. أعرف ما تفكر فيه: المسكين الساذج، كيف لم يتوقع حدوث ذلك؟ لكن لم أتوقع ذلك، ظننت أن الأمر انتهى، وظننت أن هناك فتاة أخرى (فتاة عادية في حجمها ترتدي كعبا عاليا حين ترتاد الحفلات) كنت مهتما بها، لم أتوقع ذلك في أي لحظة، حين التقيت أنا وفيرونكا بالمصادفة، حين طلبت مني أن أمشي معها إلى البيت، حين دخلنا إلى غرفتها وأشعلت النور وأطفأته هي مرة أخرى، أو أثناء بقية العملية السريعة.

نعم يمكنك أن تقولها مرة أخرى: المسكين الساذج. أتدري، بطريقة غريبة اعتقدت ذلك، اعتقدت أن ذلك ربما يكون إحدى مهارات الأنثى الغريزية التي كنت أفتقر لها بشكل حتمي. حسنا، ربما كان هذا كل ما في الأمر.

انتهيت إلى قرار ونتيجة: لا، كان القرار، لا.

«أنت أيها اللعين الأناني»، قالت حين التقيت بها في المرة التالية.

«نعم، حسنا، ها نحن مرة أخرى».

«ذلك يجعل الأمر اغتصابا بشكل فعلي».

«لا أظن أن أي شيء يجعل الأمر اغتصابا».

«حسنا كان في إمكانك أن تتحلى بالذوق لتخبرني مسبقا».

«لم أعرف بالأمر مسبقا».

«آه، إذن أكان بهذا السوء؟».

«لا، كان جيدا. إنه فقط..».

«فقط ماذا؟».

«كنت دائما تطلبين مني أن أفكر في علاقتنا والآن ربما فكرت. فكرت».

«برافو. لا بد أن الأمر كان صعبا».

فكرت: إنها مخطئة للغاية فيما يتعلق بدفوراك وتشايكوفسكي. وأكثر من ذلك، أني سوف أستطيع أن أشاهد فيلم «رجل وامرأة» بالقدر الذي أحب. بشكل علني.

«آسف؟».

«يا إلهي، توني، حتى أنك لا تستطيع أن تركز الآن. كان أخي محقا بشأنك».

عرفت أنه كان من المفترض أن أسألها عما قاله الأخ جاك، لكن لم أرد أن أمنحها تلك المتعة. في حين ظللت صامتا. تابعت هي:

«ولا تقل ذلك الشيء».

بدت الحياة لعبة تخمين أكثر مما هي في العادة.

«أي شيء؟».

«عنا وأنه مازال في مقدورنا أن نكون أصدقاء».

«هل ذلك ما يفترض بي أن أقوله؟».

«يفترض بك أن تقول ما تفكر فيه، ما تشعر به، ما تعنيه».

«حسنا. في تلك الحالة لن أقول، ما أردت أن أقول. لأني لا أعتقد أن في إمكاننا أن نبقى أصدقاء».

«أحسنت صنعا». قالت متهكمة. «أحسنت صنعا».

«لكن دعني أسألك سؤالا. هل تقربت مني لكي تستعيدني؟».

«لست مضطرا للإجابة عن سؤالك بعد الآن».

«في هذه الحالة، لِمَ لمْ تبادلني الغرام حين كنا نتواعد؟».

لم تكن هناك إجابة.

«لأنك لم تكن في حاجة إلى ذلك؟».

«ربما لم أكن أريد ذلك».

«ربما لم تكن تريد ذلك لأنك لم تكن في حاجة لذلك».

«حسنا، يمكنك أن تعتقدي ما يلائمك».

في اليوم التالي أخذت إبريق حليب كانت قد أعطتني إياه إلى محل أكسفورد. أملت أن تراه معروضا على الواجهة. لكن حين توقفت لأتأكد، كان هناك شيء آخر معروض بدلا منه: طبعة حجرية لتشيسلهيرست كنت قد أهديتها إياها بمناسبة عيد الميلاد.

على الأقل كنا ندرس مواضيع مختلفة، وبريستول كانت مدينة ضخمة بدرجة تكفي لأن نلتقي فقط بالمصادفة وبشكل عابر. وفي الأوقات التي كنا نلتقي فيها، كنت أصاب بشعور يمكن أن أسميه ما قبل الذنب، إن توقع ما كانت ستقول أو تفعل كان يجعلني أشعر بالذنب. لكن لم تتنازل قط للتحدث معي، ولهذا تلاشى هذا الخوف تقريبا. قلت لنفسي ليس هناك ما يجعلني أشعر بالذنب حياله، كلانا كان راشدا تقريبا، مسؤولا عن أفعاله، ارتبطنا بمحض إرادتنا في علاقة لم تنجح. لم يحمل أي منا، لم يقتل أي منا.

في الأسبوع الثاني من العطلة الصيفية وصلت رسالة عليها الختم البريدي لتشيسلهيرست. تفحصت خط اليد غير المألوف لي - كان متلويا ومكتوبا بإهمال - على المغلف. خط أنثوي:

أمها، لا شــك في ذلك. انتابني شعور ما قبل الذنب، ربما عانت فيرونكا مــن انهــيار عصبي وأصبحت هزيلــة وحتــى ضائعة. أو صـــارت تعاني من مرض الصفاق وطلبت رؤيتي وهي طريحة الســرير في المستشفى. أو ربما... لكن كنت أعرف أن تلك كانت تخيلات تعزز من أهميتي بنفســي. لقد كانت الرســالة بالفعل من أم فيرونكا، كانت مختصرة، ولدهشــتي، ليست بأي طريقة اتهامية. كانت آســفة لسماعها أننا انفصلنا ومتأكدة أني سأجد أخرى أكثر ملاءمة لي. ولكن لم يبد أنها كانت تعني ذلك بمفهوم أني كنت نذلا أســتحق أخرى في مســتواي من الوضاعة. على الأحرى كانت تقصــد العكس. كان خيرا لي أني أنهيت العلاقة، وتمنــت لي الأفضــل. أتمنى لو أني احتفظت بالرســالة، لكانت دليلا، وثيقــة معززة. بدلا من ذلك الدليل الوحيد الذي مصدره ذاكرتي: كانت امرأة بلا هموم مندفعة، كســرت بيضة وطهت لي أخرى، وأخبرتني ألا أتحمل أي تفاهات من ابنتها.

عدت إلى بريســتول لأكمل ســنتي الأخيرة. كانت الفتاة ذات الطــول العــادي التي ترتدي كعبــا عاليا أقــل اهتماما بي مما تخيلت، لهذا ركزت على عملي. كنت أشــك في أني أمتلك العقل الذي يؤهلني لأحصل على المركز الأول، ولكن كنت مصمما على الحصول على نتيجة ٢:١، في ليالي يوم الجمعة سمحت لنفسي بأخذ اســتراحة وقت المساء وبأن أقضيها في المقهى. في إحدى المــرات رجعت فتاة معي كنــت أدردش معها وأمضينا الليلة معا. كان الأمر كله مثيرا بشــكل ممتع ومؤثــر، ولكن لم يتصل أحدنا بالآخــر بعد تلك الليلة. لم أفكر فــي الأمر حينها كما أفكر فيه

الآن. أتوقع أن مثل ذلك السلوك الاستجمامي سوف تراه الأجيال القادمة على أنه غير جدير بالملاحظة، بالنسبة إلى أيامنا هذه وفي حينها، على كل حال، ألم يكن «حينها» في ذلك الوقت «الستينيات»؟ نعم كانت كذلك، لكن، كما قلت، يعتمد الأمر كله على أين كنت ومن أنت. اسمح لي بدرس مختصر في التاريخ، معظم الناس لم يعيشوا «الستينيات»، حتى قدوم السبعينيات. وهذا منطقيا يعني أن معظم الناس في الستينيات كانوا يعيشون في الخمسينيات، أو، في حالتي، جزء من العقدين جنبا إلى جنب. مما جعل الأمور مشوشة للغاية.

المنطق، نعم، أين المنطق؟ أين هو، مثلا، في اللحظة التالية من قصتي؟ في منتصف السنة النهائية تقريبا تسلمت رسالة من أدريان. أصبحت الرسائل بيننا أمرا نادر الحدوث لأن كلا منا كان يدرس بجد لسنته النهائية. كان بالطبع متوقعا أن يحصل على المركز الأول. وماذا بعد ذلك؟ الدراسات العليا تتبعها الحياة الأكاديمية، أو وظيفة ما في المجال الحكومي حيث يمكن أن يستفاد من عقله وحسه بالمسؤولية. أحدهم أخبرني ذات مرة أن العمل الحكومي (أو على الأقل المستويات العليا منه) مكان مثير للعمل لأنك تكون دائما في حاجة إلى أن تتخذ قرارا أخلاقيا. لعل ذلك سيكون مناسبا لأدريان. إني بالتأكيد لا أراه كشخص دنيوي أو مغامر، ما عدا فكريا بالطبع. إنه ليس ذلك النوع من الأشخاص الذين تصل أسماؤهم وصورهم للصحف.

على الأغلب تستطيع التخمين أني أؤجل إخبارك الجزء التالي. حسنا، قال أدريان إن الغرض من رسالته هو طلب الإذن

مني لكي يخرج مع فيرونكا في موعد.

نعم، لِمَ هي، ولِمَ في ذلك الحين، ثم لماذا عليه أن يسألني؟ في الواقـــع، وحتى أكون مخلصا لذاكرتـــي، بقدر ما كان ذلك ممكنا (ولـــم أحتفظ بتلك الرســـالة أيضا)، ما قاله هـــو أنه وفيرونكا يتواعدان بالفعل، شـــيء مما لا شك فيه لن يطرأ على بالي أولا وأخيـــرا، ولهذا كان من الأفضل أن أســـمع عن ذلك منه. أيضا، بينما قد تكون تلك الأخبار مفاجئة لي، بيد أنه تمنى أن أتفهمها وأتقبلها، لأنه إن لم أســـتطع، فهو يعتمد على صداقتنا في إعادة النظـــر إلى أفعاله وقراراته. وأخيرا، أن فيرونكا وافقت على أن يرسل هذه الرسالة. بالطبع كان ذلك اقتراحها بشكل جزئي.

كمـــا يمكنك أن تتخيـــل، لقد أحببت ذلك الجـــزء عن وازعه الأخلاقـــي، ملمحـــا إلى أنـــه إن كنـــت أظن أن قانونا مقدســـا للفروســـية، أو أفضل من ذلك، مبدأ أخلاقيـــا معاصرا، قد تم اختراقه، فإنه ســـيتوقف عن مواعدتها. هذا على افتراض أنها لم توتر علاقتها معه كما فعلت معي. أحببت أيضا نفاق الرسالة التي لم تكن فقط تهدف لأن تخبرني شـــيئا قد لا أكتشـــفه بأي حـــال (أو لفترة طويلة من الزمن) بـــل أيضا لتعلمني أن فيرونكا قامـــت بالمقايضـــة بصديقي الأذكى، وأكثر مـــن ذلك، طالب من كيمبـــردج مثل الأخ جاك. أيضا، لتحذرني أنها ســـتكون موجودة إن خططـــت يوما للالتقاء بأدريان، ما أدى إلى التأثير المنشـــود في ألا أخطط للقاء أدريان. مرة أخرى علي أن أؤكد أن هذا هو تفسيري الآن لما حدث حينها. أو بالأحرى، ذاكرتي الآن لتفسيري لما حدث حينها.

لكن أعتقد أني أملك غريزة البقاء، الحفاظ على الذات. ربما هذا ما دعته فيرونكا بالجبن ودعوته أنا بالميل للمسالمة. على أي حال، شـــيء ما حذرني من التورط، على الأقل ليس الآن. أخذت أول بطاقة بريدية تصل يدي لها - صورة لجســر كليفتون المعلق - وكتبت كلمات مثل: «بعد استلامي لخطابكم الواحد والعشرين، يأمــل الموقع أدناه أن يقدم لكما تحياته ويتمنى أن يؤكد لكما أن كل شـــيء على ما يرام بالنسبة إلي، أيها الصديق». سخيفة، لكن ليست غامضة، وستكون كافية في الوقت الحالي. سوف أتظاهر - خاصة بالنســبة إلى نفسي - أني لم أمانع بذلك البتة. سوف أدرس بجــد، وأجمد عواطفي، ولا أصحــب أي فتاة من المقهى، وأعمل على أن أحصل على الشــهادة التي أستحقها. قمت بذلك كله (نعم، وحصلت على نتيجة ١:٢).

مكثت بضعة أسابيع بعد أن انتهيت من الامتحانات، وتسكعت مع مجموعة مختلفة، وشــربت بشكل متواصل، ولم أفكر كثيرا. عدا تخيلي لما قد تكون فيرونكا قالته لأدريان عني («سلب عذريتي مني وهجرني مباشرة. ولهذا الأمر كله كان مثل الاغتصاب، هل تفهــم ما أقوله؟» «تخيلتها تتملق له - لقد شــهدت بداية ذلك - وتمدحه وتعزف على توقعاته. كما قلت، لم يكن أدريان شــخصا دنيويــا بالرغم من كل نجاحه. ولهذا كانت اللهجة المتوســلة في رســالته، التي اعتدت لفترة من الزمن أن أعيد قراءتها بشــعور الشــفقة على الــذات. وفي النهايــة حين أجبت عليها بشــكل مناســب، لم أســتخدم لغة «خطابكم» السخيفة. حسبما أتذكر، أخبرته بشــكل واضح رأيي بوازعهما الأخلاقي المشــترك. كما

نصحتـــه أن يتحلى ببعد النظـــر لأن فيرونكا كانت قد عانت من خلـــل ما في وقت بعيد فـــي الماضي. ثم تمنيت لـــه حظا طيبا، وحرقت رسالته في موقد فارغ (أوافق أنه فعل ميلودرامي، ولكن حجتي هي الشباب كظرف تخفيفي)، وقررت أن كليهما خرج من حياتي إلى الأبد.

مـــاذا قصدت بـ «خلل»؟ لقد كان مجـــرد تخمين، لم يكن لدي دليـــل حقيقي. لكن كلما تذكرت عطلة نهاية الأســـبوع التعيســـة تلك، أدركت أن الموضوع لم يكن مجرد شاب ساذج صار مضطربا بـــين عائلة مرفهة ذات مهـــارات اجتماعية مصقولة. بالطبع ذلك مـــا كان يجري أيضا. لكن أحســـست بتواطؤ بـــين فيرونكا وأبيها ذي القدمـــين واليدين الثقيلة، الذي عاملنـــي كأني دون المقاييس المطلوبـــة. وتواطؤ أيضـــا بين فيرونكا والأخ جـــاك الذي اعتبرت فيرونكا حياته وسلوكه لا يضاهى: فقد كان القاضي المنصب حين ســـألته بشكل علني عني، ويصبح الســـؤال أكثر تعاليا مع كل مرة يتكرر فيها «ســـوف يصلح، أليس كذلك؟»، من ناحية أخرى لم أر البتة أي تواطؤ بالنســـبة إلى أمها، التي من دون شك كانت تعرف طبيعتها. كيف توافرت للسيدة فورد الفرصة الأولى لتحذرني من ابنتها؟ لأنه في ذلك الصباح - وهو صبيحة أول يوم بعد وصولي - كانـــت فيرونكا قد أخبرتهم برغبتي في التأخر في النوم وخرجت مـــع أبيها وأخيها. لم يحدث أي حوار بيننـــا يبرر ذلك الاختلاق. فأنا لم أنم أبدا حتى وقت متأخر. وحـــتى أني لا أفعل ذلك الآن.

حين كتبت لأدريان، لم أكن نفسي متأكدا مما عنيته بـ «خلل». وفـــي معظم حياتي فيما بعد كانت الفكرة غير واضحة لدي. لم

تكن حماتي (أنا سعيد أنها ليست جزءا من هذه القصة) تقدرني كثيرا، ولكن على الأقل كانت صريحة بهذا الشأن، كما كانت بشأن الكثير من الأمور. ذات مرة لاحظت - حين كتب في الصحف عن حالة أخرى من سوء معاملة الأطفال - «أعتقد أننا جميعنا أسيء لنا». هل أنا ألمح إلى أن فيرونكا كانت ضحية ما يسمى في أيامنا هذه «السلوك غير اللائق». كيف لي أن أعرف؟ هل كانت هناك لحظة ماضية من الفقدان، أو حرمان من الحب أو استماع لحوار استنتجت منه الطفلة أن...؟ مرة أخرى لا أستطيع أن أعرف. ليس لدي دليل، سواء قصصي أو توثيقي. لكن أذكر ما قاله أولد جو هانت حين كان يحاور أدريان. يمكن أن تستنتج الحالات الذهنية من الأفعال. ذلك كان في التاريخ، هنري الثامن وغيره. بينما في الحياة الخاصة أعتقد أن العكس صحيح: أنك تستطيع أن تستنتج الأفعال الماضية من الحالات الذهنية الحالية.

أنا بالتأكيد أعتقد أننا جميعنا نعاني خللا ما بطريقة أو بأخرى. كيف لنا ألا نعاني خللا، إلا في عالم من الآباء والإخوان والجيران والرفاق الكاملين؟ ثم هناك القضية التي يعتمد عليها الكثير، وهي كيف نستجيب لهذا الخلل، هل نعترف به أم نكبته، وكيف يؤثر ذلك في تعاملنا مع الآخرين. البعض يعترف بالخلل ويحاول التخفيف منه، البعض الآخر يمضون حياتهم وهم يحاولون مساعدة آخرين أصابهم خلل، ثم هناك هؤلاء الأشخاص الذين ينصب اهتمامهم الرئيسي على تفادي إصابتهم بمزيد من الخلل، مهما كلف الثمن. هؤلاء الذين يكونون قساة وعليك أن تحذرهم.

قد تعتقد أن ذلك مجرد هراء، هراء فيه ميل للوعظ وللتبرير الذاتـــي. قـــد تعتقد أني تعاملـــت مع فيرونكا بأســـلوب ذكوري نموذجي فج، وأن جميع «اســـتنتاجاتي» يمكن عكســـها. فمثلا، «بعد أن انفصلنا، تواصلنا جسديا»، يمكن أن تعكس بسهولة إلى «بعد أن تواصلنا جســـديا، انفصلت عنهـــا». وقد تقرر أيضا أن عائلة فورد هي عائلة إنجليزية من الطبقة الوسطى كنت أسقط عليها شـــظايا من نظريات مخيفة عن الخلل، وأن السيدة فورد، بدلا من أن تكـــون لبقة مهتمة بأمري، كانت تظهر غيرة مرضية من ابنتها. وحتى قد تطلب مني أن أطبق «نظريتي» على نفســـي وأن أوضح الخلل الذي عانيت منه في زمن مضى وماذا قد تكون العواقب لذلك: مثلا، كيف أثرت في مصداقيتي وصدقي. لأكون صريحا، لست متأكدا إن كنت أستطيع أن أجيب عن هذا كله.

لم أتوقع أي رد مـــن أدريان، ولم يصلني رد. والآن فكرة لقاء كولـــن وألكس وحدهما صارت لا تروق لي. بعد أن كنا ثلاثة، ثم أربعة، كيف يمكن أن نعود إلى ثلاثة مرة أخرى؟ إذا أراد الآخرون أن يشـــكلوا عصبتهم، لا بأس في ذلـــك، فليفعلوا. أنا في حاجة إلى أن أواصل حياتي. وهذا ما فعلت.

بعض رفاقي قاموا بعمل اجتماعي تطوعي، حيث غادروا إلى أفريقيـــا وعلموا هناك أطفال المـــدارس وبنوا جدرانا طينية، لم أكن بتلك المثالية. أيضا، في تلك الأيام كنت تفترض بشكل ما أن شهادة جيدة ستضمن لك عملا محترما، عاجلا أو آجلا. «الحظ إلى جانبي، نعم إنه كذلك»، كنت أرنم عاليا مع ميك جاغر ونحن ندور في حلقة وحدنا فـــي غرفة الطلبة. وبهذا، في حين تركت

الآخرين يتدربون ليصبحوا أطباء أو محامين ويتقدموا لامتحانات القطاع الحكومي، رحلت إلى الولايات المتحدة الأمريكية وتجولت نحو ستة أشهر. عملت نادلا وصبغت الأسيجة، وقمت بأعمال البستنة وأوصلت سيارات عبر الولايات. في تلك السنوات التي سبقت الهاتف الجوال والإيميل وسكايب، اعتمد المسافرون على أنظمة تواصل بدائية تعرف بالبطاقات البريدية. أما الأساليب الأخرى - كمكالمات المسافات البعيدة والبرقيات - فقد كانت تستخدم «في الحالات الطارئة فقط». لهذا، فقد ودعني والداي إلى عالم المجهول وكانت تنحصر أخبارهما عني بـ «نعم، لقد وصل سالما»، و«آخر مرة سمعنا عنه كان في أوريغون»، و«نتوقع أن يعود خلال بضعة أشهر». أنا لا أقول إن ذلك بالضرورة كان أفضل، أو إنه يساعد في تشكيل الشخصية، بل كل ما أقوله فقط إنه في حالتي، ذلك ساعدني حيث لم تتوافر لوالدي فرصة الضغط على زر لإفراغ مشاعر القلق وإعلامي بتنبؤات جوية طويلة لتحذيري من الفيضانات والأوبئة والمرضى النفسيين الذين يتصيدون لحاملي أمتعتهم على ظهورهم.

التقيت بفتاة حين كنت هناك: آني. كانت أمريكية تتجول في أنحاء البلد مثلي. ارتبطنا بعلاقة وأمضينا ثلاثة أشهر معا. كانت ترتدي قميصا مربع النقش، وعيناها خضراوان ضاربتان للبني وكانت ودودة المعشر، صرنا حبيبين بسهولة وبسرعة، لم أستطع أن أصدق حظي. كما لم أستطع أن أصدق بساطة العلاقة، أن نكون صديقين ورفيقي فراش، أن نضحك ونشرب معا، أن نشاهد جزءا قليلا من العالم جنبا إلى جنب، ثم ننفصل

دون تبادل الاتهام أو اللوم. ما يأتي بســهولة يذهب بسهولة، كما اعتــادت أن تقول وتعني. فيما بعد، حين أســتذكر تلك العلاقة، أتساءل إن لم يكن شيء في داخلي صدم من تلك السهولة وسعى وراء تعقيــد أكبر للعلاقة كدليل على... مــاذا؟ العمق، الجدية؟ رغــم - الله يعلم - أنك يمكن أن تعاني مــن التعقيد والصعوبة مــن دون عمق أو جدية يعوضانك. وبعد ذلك بزمن أبعد، وجدت نفسي أناقش مســألة «ما يأتي بسهولة يذهب بسهولة»، وما إن كانــت هناك طريقة لطرح ســؤال وللبحث عــن إجابة معينة لم أستطع أن أقدمها. مع هذا كان ذلك كل ما في الأمر. كانت آني جزءا من قصة حياتي ولكنها ليست جزءا من هذه القصة.

فكر والداي في التواصل معي حين حدث الأمر، لكن لم يعلما في أي مكان كنت. في الحالات الطارئة الحقيقة - مثل الحضور وقت احتضار الأم - أتصور أن وزارة الخارجية ســوف تتواصل مع الســفارة في واشنطن التي سوف تعمل على إعلام السلطات الأمريكية والتي بدورها سوف تطلب من الشرطة في أرجاء البلد البحث عن رجل إنجليزي مرح ســفعته الشــمس كان أكثر بقليل ثقة بنفسه مما كان عليه عندما وصل إلى البلد. في هذه الأيام، كل ما يتطلبه الأمر هو رسالة نصية.

حين عدت إلــى الوطن، عانقتني أمــي بذراعيها المتصلبتين ووجهها المغطى بالمســاحيق، وأرسلتني إلى الحمام وطهــت لــي مــا كانت لاتزال تشــير إليه على أنه «عشــائي المفضل»، والذي تقبلتــه على أنه كذلــك، إذ لم أزودها بتقريــر حديث لفترة من الزمن عــن حليمات التذوق لــدي. بعد ذلك ناولتني الرســائل

القليلة التي وصلت أثناء غيابي.

«من الأفضل أن تفتح أولا تلك الرسالتين».

كانت الرسالة الموضوعة في الأعلى ملاحظة قصيرة من ألكس: «عزيزي توني، مات أدريان. قتل نفسه. هاتفت والدتك وقالت إنها لا تعرف مكانك. ألكس».

«اللعنة»، قلت شاتما لأول مرة أمام والدي.

«آسف لسماع ذلك، يا رجل»، لم يبد تعليق أبي مناسبا للمقام. نظرت إليه ووجدت نفسي أتساءل إن كان الصلع متوارثا، سيكون متوارثا.

بعد وقفة من تلك الوقفات الاجتماعية التي تقوم بها كل عائلة بشكل مختلف، سألتني أمي: «أتعتقد أن ذلك حدث لأنه كان ذكيا أكثر مما يجب؟».

«ليس لدي الإحصاءات التي تقيس الذكاء بالنسبة لمعدلات الانتحار»، أجبت.

«نعم، توني، ولكنك تعرف ما أقصد».

«في الحقيقة لا، لا أعرف مطلقا».

«حسنا، دعني أقلها بهذه الطريقة: أنت ولد ذكي، لكنك لست ذكيا جدا إلى درجة تقوم بفعل مثل هذا».

حدقت فيها دون أن أفكر. تشجعت مخطئة على الاستمرار في حديثها:

«إن كنت ذكيا. أعتقد أن هناك شيئا سيزعجك إن لم تكن حذرا».

لكي أتفادى الانخراط في هذه النظرية، فتحت رسالة ألكس

الثانية. قال إن أدريان فعلها بشكل فاعل وترك تفسيرا كاملا لأسبابه. «دعنا نلتق ونتحدث. المقهى في فندق تشارينغ X، اتصل بي. ألكس».

أفرغت حقائبي، وأعدت التكيف، وكتبت تقارير عن رحلاتي، وعودت نفسي على الروتين والروائح والمتع الصغيرة والضجر الكبير للبيت. ولكن استمر عقلي في استرجاع تلك المناقشات البريئة المتحمسة التي كنا نخوضها حين شنق روبسون نفسه في العلية، في زمن ماض قبل أن تبدأ حياتنا. لقد بدا لنا واضحا من وجهة نظر فلسفية أن الانتحار حق كل إنسان حر، فعل منطقي في مواجهة المرض المميت أو الخرف، فعل بطولي في مواجهة التعذيب أو موت الآخرين، فعل ساحر في مواجهة غضب حب فاشل (انظر: «الأدب العظيم»). لم تنطبق أي من تلك التصنيفات على حالة فعل روبسون العادي ضئيل الشأن.

لم تنطبق أي منها على أدريان. في الرسالة التي تركها للطبيب الشرعي قام بشرح منطقه: إن الحياة هبة منحت من دون أن يطلبها أحد، إن الشخص المفكر عليه واجب فلسفي للتفكير في طبيعة الحياة والظروف التي تأتي معها، إنه إذا ما قرر شخص رفض الهبة التي لم يطلبها، فإن من الواجب الأخلاقي والإنساني أن يتصرف بناء على عواقب هذا القرار. لقد كان هناك في النهاية شيء مثل «وهو المطلوب إثباته». كان أدريان قد طلب من الطبيب الشرعي أن يجعل نقاشه هذا علنيا، ووافق الموظف على ذلك.

وأخيرا، سألت «كيف فعلها؟».

«لقد قام بقطع رسغيه في الحمام».

«يا إلهي. هذا النوع... إغريقي، أليس كذلك؟ أم كان ذلك شراب الشوكران؟».

«أكثر منه روماني، كما أعتقد. فتح الوريد. وكان يعرف كيف يقوم بذلك. عليك أن تقطع بشكل قطري. إذا ما قطعت بشكل مستقيم، فإنك قد تفقد الوعي وينغلق الجرح، فتفسد الأمر».

«ربما ستغرق بدلا من ذلك».

«حتى في هذه الحالة، الجائزة الثانية»، قال ألكس. «أدريان كان سيسعى إلى الجائزة الأولى». لقد كان محقا، شهادة من الدرجة الأولى، انتحار من الدرجة الأولى.

لقد انتحر في شقة كان يشترك فيها مع طالبي دراسات عليا، وكانا قد غادرا في نهاية الأسبوع، ولهذا كان لدى أدريان الوقت الكافي للتحضير. فقد كتب رسالته للطبيب الشرعي، وثبت ملاحظة على باب الحمام تقول: «لا تدخل - اتصل بالشرطة - أدريان»، جهز الحمام، أغلق الباب، قطع رسغيه في الماء الساخن، نزف حتى الموت. وعثر عليه بعد يوم ونصف اليوم.

أطلعني ألكس على قصاصة من صحيفة كيمبردج إيفيننغ نيوز «موت مأساوي لشاب واعد». ربما استمروا في نشر هذا العنوان. كانت نتيجة تقرير الطبيب الشرعي أن أدريان فن (٢٢) قتل نفسه «حين اختل توازن عقله». أذكر كم أغضبتني تلك العبارة التقليدية، كنت سأحلف تحت القسم أن عقل أدريان هو العقل الوحيد الذي لن يفقد توازنه. ولكن من وجهة نظر القانون إن أنت قتلت نفسك فستكون بحكم القانون مجنونا، على الأقل

في اللحظة التي ارتكبت فيها الفعل. إن القانون والمجتمع والدين كلها قررت أنه من المستحيل أن تكون عاقلا سليما وتقدم على قتل نفسك. لعل تلك السلطات تخشى أن يفند منطق المنتحر طبيعة وقيمة الحياة كما تحددها الدولة التي تدفع رواتب الطبيب الشرعي؟ وبهذا لأنه أعلن أنك مجنون بشكل مؤقت، فإن أسباب انتحارك سيفترض أيضا أنها مجنونة. لهذا لا أظن أن أحدا أعار انتباهه لمنطق أدريان، وإشاراته إلى فلاسفة قدامى ومعاصرين حول سمو الفعل التدخلي فوق السلبية التافهة بجعل الحياة مجرد أن تحدث لك.

أدريان سبب للشرطة إزعاجا حين طلب من الطبيب الشرعي أن ينشر كلماته الأخيرة للعلن. كما طلب أن تحرق جثته وأن ينثر رماده لأن الدمار السريع للجسم يمثل أيضا خيارا فاعلا للفيلسوف ومفضلا على الانتظار السلبي للتعفن الطبيعي تحت الأرض.

«هل ذهبت إلى الجنازة؟».

«لم أدع. ولم يدع كولن. كان أمرا عائليا فقط».

«ماذا تعتقد؟».

«حسنا، أفترض أنه حق للعائلة».

«لا أسأل عن ذلك. أسأل عن أسبابه».

أخذ ألكس رشفة من الشراب. «لم أستطع أن أحدد ما إذا كان ذلك مثيرا للإعجاب أم مجرد خسارة».

«وهل حددت؟».

«حسنا، يمكن أن يكون كليهما».

قلت: «ما لم أستطع فهمه هو ما إذا كان شيئا مكتملا بذاته

- لا أعني تبجيلا للذات ولكن، كما تعلم، يخص أدريان فقط
- أو شيئا انطوى على انتقاد لكل شخص آخر. انتقاد لنا».
نظرت إلى ألكس.
«حسنا، قد يكون كليهما».
«توقف عن قول ذلك».
«أتساءل عما فكر فيه معلموه لموضوع الفلسفة. وما إذا كانوا يشعرون بالمسؤولية بأي طريقة. فهم من دربوا عقله على أي حال».
«متى رأيته آخر مرة؟».
«قبل نحو ثلاثة أشهر من موته. في المكان الذي تجلس فيه الآن. ولهذا اقترحت هذا المكان».
«إذن فقد جاء إلى تشيسلهيرست. كيف كان يبدو؟».
«مبتهجا. سعيدا. مثلما هو دائما، وأكثر من ذلك. وحين ودعنا بعضنا قال لي إنه مغرم».
اللئيمة، فكرت. لو كانت هناك امرأة في العالم كله يقع في غرامها رجل ويبقى مقتنعا أن الحياة لا تستحق العيش، فستكون فيرونكا.
«ماذا قال عنها؟».
«لا شيء. أنت تعرف كيف كان».
«هل أخبرك أني كتبت له رسالة أعلمته فيها أين يضعها؟».
«لا، لكن ذلك لا يدهشني».
«ما الذي لا يدهشك، أني كتبت الرسالة، أم أنه لم يخبرك عنها؟».

«حسنا، قد يكون كليهما».

قرصته نصف قرصة، كانت كافية لأن يسكب شرابه.

في البيت، لم يكن لدي وقت كاف لأفكر فيما سمعت، فكان علي أن أقاوم أسئلة أمي.

«ماذا عرفت؟».

أخبرتها القليل عن كيف حدث ذلك.

«لابد أنها كانت تجربة صعبة جدا لرجال الشرطة المساكين. الأشياء التي كان عليهم القيام بها. هل كان لديه مشاكل مع فتاة؟».

جزء مني كان يود أن يقول: بالطبع، فقد كان يواعد فيرونكا. بدلا من ذلك، أجبت فقط: «ألكس قال إنه كان سعيدا في آخر مرة رآه».

«إذن لماذا فعل ذلك؟».

أخبرتها النسخة المختصرة من النسخة المختصرة، وأخفيت أسماء الفلاسفة المعنيين. حاولت أن أشرح رفض الهبة التي لم يطلبها، وعن الفعل ضد اللافعل. أومأت أمي كأنها استوعبت الأمر كله.

«هل ترى، كنت على حق».

«كيف ذلك، يا أمي؟».

«لقد كان ذكيا للغاية. لو كنت بذلك الذكاء لكنت أقنعت نفسك بأي شيء. فقط اترك البديهية جانبا. إنه عقله الذي زعزعه، ولهذا أقدم على ذلك».

«نعم يا أمي».

«ذلك كل ما لديك لتقوله؟ تعني أنك موافق؟».

عدم الإجابة كانت الطريقة الوحيدة لأحافظ على هدوئي.

أمضيت الأيام القليلة التالية محاولا أن أفكر في موت أدريان من كل زاوية. في حين لم أتوقع أن تصلني رسالة وداع من أدريان، شعرت بخيبة الأمل بالمنسبة إلى كولن وألكس. كيف علي أن أفكر في فيرونكا؟ أدريان أحبها، ومع هذا قتل نفسه. كيف يمكن تفسير ذلك؟ بالنسبة إلى معظمنا، فالتجربة الأولى في الحب، حتى إن لم تنجح - ربما خصوصا إن لم تنجح - تعدنا أن الحب هو الشيء الذي يبرر الحياة ويسوغها. وعلى الرغم من أن السنوات التالية قد تغير هذا الرأي، حتى ييأس منه بعضنا، حين يصيبنا الحب في البداية، فلا مثيل له، أليس كذلك؟ أتوافق على ذلك؟

ولكن أدريان لم يوافق. ربما لو كانت امرأة أخرى... أو ربما لا، لقد شهد ألكس على ابتهاج أدريان الكبير حين التقيا آخر مرة. لقد حدث شيء فظيع في الأشهر التالية؟ لكن لو كان الأمر صحيحا، لأشار إليه أدريان بالتأكيد. فقد كان الباحث عن الحقيقة والفيلسوف بيننا، إن كانت تلك هي الأسباب التي قالها، فلا بد أن تكون الأسباب الحقيقية.

بالنسبة لفيرونكا، فقد انتقلت من لومها على فشلها في إنقاذ أدريان إلى الشفقة عليها: هاك هي منتصرة، بعد أن أتمت عملية المقايضة، وأنظر ماذا حدث. أعلي أن أقدم لها التعازي؟ لكن ستظن أني منافق. لو كان في إمكاني أن أتواصل معها، إما أنها لن ترد وإما أنها ستحرف الأشياء بحيث أصبح في نهاية المطاف إنسانا غير قادر على التفكير بشكل سليم.

وجدت نفســي في النهاية أفكر بطريقة ســليمة. هذا يعني أني فهمت أسباب أدريان واحترمتها وأعجبت به. لقد كان يملك عقلا أفضل من عقلــي وطبعا أكثر صرامة من طبعي، لقد فكر بشــكل منطقي وتصرف بناء على نتيجة التفكير المنطقي. بينما معظمنا، كما أظن، يفعلون العكس: نتخذ قرارا غريزيا، ثم ننشئ بنية تحتية مــن المنطق لتبريره. ونســمي النتيجة البديهي. هل اعتقــدت أن فعل أدريان انتقاد ضمني لبقيتنا؟ لا. أو على الأقل أنا متأكد أنه لم يكن في نيته ذلك. قد يجذب أدريان الناس إليه ولكنــه لن يتصــرف كأنه يرغب في أن يكون لــه أتباع، لقد كان يؤمن أن كل واحد منا له طريقته في التفكير. هل كان «سيستمتع بالحياة»، كما يفعل معظمنا، أو ســيحاول ذلك لو كان قد عاش؟ ربما، أو ربما كان ســيعاني من الذنب والندم لفشله في أن يقرن أفعاله بمنطقه.

ولا يغير ما ذكرت ســابقا من حقيقــة أن الأمر مع ذلك، كما قالها ألكس، خسارة فظيعة لعينة.

بعد مرور عام، اقترح كل من كولن وألكس أن نلم الشمل. في الذكرى السنوية لوفاة أدريان التقينا ثلاثتنا لنحتسي الشراب في فندق تشارينغ كروس، ثم ذهبنا لتناول وجبة طعام هندية. حاولنا أن نتذكر صديقنا ونحتفل به. تذكرناه حين قال لأولد جو هانت إنه أصبح عاطلا عن العمل وحين علم فيل ديكســون عن إيروس وثاناتوس. كنا في ذلك الحين نحول ماضينا إلى حكاية. وتذكرنا كيــف هتفنا للإعلان عــن فوز أدريان ببعثــة لجامعة كيمبردج. أدركنــا أنه في حين كان هو ملجأ لنا، لــم يكن أي منا ملجأ له،

وأننا لم نعرف - هل سـألنا في أي وقت؟ - ماذا كان أبوه يعمل. فـي الخارج، ربت كل منا على كتف الآخر واتفقنا على أن نحيي الذكرى كل عام. لكن حياتنا كانت تسـير باتجاهات مختلفة، ولم تكن ذكرى أدريان كافية لأن تجمعنا. لعل الافتقار للغموض بشأن موته كان يعني أن القضية أغلقت بسـهولة. سوف نتذكره طوال حياتنا بالطبع. لكن كان موته نموذجيا أكثر منه «مأساويا» - كما اعتـادت أن تصوره صحيفة كيمبردج - ولهذا فقد انسـحب من حياتنا بسرعة، انتهى في شق الزمن والتاريخ.

فـي ذلك الحين تركـت البيت وبـدأت العمـل كمتدرب في إدارة الفنون. ثم التقيت بمارغريت، تزوجنا وبعد ثلاث سـنوات ولدت سوزي. اشـترينا بيتا صغيرا برهن ضخم، كنت أستخدم المواصـلات للذهاب إلى لندن يوميا. تحولـت فترة تدريبي إلى مهنة طويلة الأمد. استمرت الحياة. قال رجل إنجليزي ذات مرة إن الزواج وجبة طويلة مملة يقدم فيها حلوى البودنغ أولا. أعتقد أن هذا القول فيه الكثير من التهكم. لقد استمتعت بزواجي، لكن ربما كان هادئا أكثر من اللازم - أكثر نزعة للمسالمة - وكان ذلك في مصلحتي. بعد اثني عشـر عاما ارتبطت مارغريت مع رجل كان يديـر مطعما. لم أحبه كثيـرا - أو لم أحب طعامه بقدر ما يتعلق به - ولكن كنت لن أحبه، أليس كذلك؟ رعاية سوزي كانت مشتركة بيننا. لحسن الحظ، لم تبد أنها تأثرت جدا بالانفصال، وكما أدرك الآن، فإني لم أطبق عليها نظريتي حول الخلل.

بعـد الطلاق، كان لدي بعض العلاقـات، لكن لم يكن أي منها جـديا. كنـت دائـما أخبـر مارغـريت عـن حبيبتي الجـديـدة.

في ذلك الوقت بدا الأمر طبيعيا. الآن أتساءل أحيانا ماذا إن كانت محاولة من طرفي لأجعلها تغار، أو ربما كان فعلا لحماية الذات، طريقة لمنع العلاقة الجديدة من أن تصبح جدية أكثر من اللازم. أيضا، في حياتي التي صارت أكثر خواء، ابتكرت أفكارا مختلفة أسميتها «مشاريع»، ربما لأجعلها تبدو ذات جدوى. لم يتحول أي منها إلى واقع. حسنا، هذا لا يهم، كما لا يهم أي جزء من قصتي.

كبرت سوزي، وأخذ الناس ينادونها سوزان. حين صارت في الرابعة والعشرين من عمرها مشيت معها على الممر المؤدي إلى مكتب الزواج. يعمل كِن طبيبا، لديهما طفلان الآن، ولد وبنت. صورهما التي أحملها دائما في محفظتي تظهرهما أصغر من عمرهما. هذا طبيعي، كما أعتقد، أو قل «واضح من وجهة نظر فلسفية». لكن تجد نفسك تكرر «إنهما يكبران بسرعة، أليس كذلك؟». في حين أن كل ما تعنيه هو: الزمن يسير بسرعة بالنسبة إلي في هذه الأيام.

اتضح أن زوج مارغريت الثاني لم يكن ميالا للمسالمة بدرجة كافية، فقد هرب مع امرأة أخرى تشبهها ولكنها تصغرها بعشر سنوات. بقيت أنا وهي على علاقة طيبة، نلتقي في المناسبات العائلية وأحيانا نتناول الغداء معا. ذات مرة، بعد أن احتست كأسا أو كأسين، صارت عاطفية واقترحت أن نعود لبعضنا. أشياء أكثر غرابة حدثت، كما قالت. لا شك في أن ذلك صحيح، ولكن في ذلك الحين صرت متعودا على روتيني الخاص ومغرما بعزلتي. أو أني لم أكن غريبا بدرجة كافية لأقوم بشيء من هذا القبيل. في مرة أو مرتين تحدثنا عن الذهاب معا في عطلة، لكن

أعتقد أن كلا منا توقع من الآخر أن يخطط لها ويحجز التذاكر والفنادق. ولهذا لم يحدث ذلك.

أنـــا متقاعد الآن. لدي شـــقتي الخاصـــة وممتلكاتي. لازلت أتواصـــل مـــع بعض رفاق الشـــرب، ولدي بعـــض الأصدقاء من النساء، علاقات أفلاطونية بالطبع. (وهن لسن جزءا من القصة أيضـــا). أنا الآن عضو في جمعيـــة التاريخ المحلية، بيد أني أقل حماسا من البعض بشأن ما قد تعثر عليه كاشفات المعادن. منذ فتـــرة من الزمـــن، تطوعت لإدارة مكتبة في المستشـــفى المحلي، أتجول في الأجنحة لأوصل كتبا وأجمعها وأوصي بها. كان العمل يمنحني الفرصـــة للخروج، كما أنه من الجميل أن أقوم بشـــيء نافـــع، أيضا، ألتقي بأناس جدد. أنـــاس مرضى، بالطبع، أناس يحتضرون أيضا. لكن على الأقل ســـوف أعرف كيف أتجول في المستشفى حين يأتي دوري.

هـــذه هي الحيـــاة، أليس كذلـــك؟ بعض الإنجـــازات وبعض الخيبات. لقد كانت الحياة ممتعة بالنســـبة إلي، ولكن لن أتذمر أو أدهش إذا ما وجدها آخرون أقل متعة. ربما، بطريقة ما، كان أدريان يعرف ما كان يفعل. هذا لا يعني أنني مســـتعد لأن أفقد حياتي لأجل أي شيء، أنت تدرك ما أعنيه.

لقـــد بقيت على قيد الحياة. «لقد عاش ليحكي القصة»، هذا ما يقوله الناس، أليس كذلك؟ إن التاريخ ليس أكاذيب المنتصرين، كما أكدت بحماقـــة ذات مرة لأولد جو هانت، أعرف ذلك الآن. إنه أكثر مـــن ذلك، ذكريات الباقين على قيد الحياة، ومعظـــمهم لا هو منتصر ولا منكسر.

الجزء الثاني

في وقـت لاحق من الحياة، تتوقع قسـطا من الراحة، أليس كذلك؟ تعتقد أنك تستحق ذلك. هذا ما اعتقدته، على أي حال. لكن بعد ذلك تدرك أن مكافأة الجدارة ليست مسألة تهم الحياة.

أيضا، حين تكون شـابا تعتقد أنك تسـتطيع أن تتنبأ بالآلام والمآسي المحتملة التي قد يجلبها التقدم في العمر. تتخيل نفسك وحيـدا ومطلقا وأرملا، الأولاد كبروا وتركوك، الأصدقاء ماتوا. تتخيـل فقدان منزلتك، فقدان الرغبـة، أو القدرة على الرغبة. قـد تذهب إلى أبعـد من ذلك وتتخيل نفسـك أنك اقتربت من المـوت الذي، بغض النظر عن الأصدقـاء الذين ترافقهم، عليك أن تواجهـه وحيدا. ولكـن كل ذلك يعد نظرا إلـى الأمام. غير أن ما تفشـل في أن تقوم به هو أن تنظـر إلى الأمام، ثم تتخيل نفسـك وأنت تنظر إلى الوراء من النقطة المستقبلية. معرفة ما يجلبه الزمن معه من عواطف جديدة. الاكتشاف، مثلا، أنه حين يتلاشـى الشاهد على حياتك، سـيكون هناك توثيق أقل، وبهذا يقـين أقل، عمن أنت ومن كنـت. حتى لو واظبت على الاحتفاظ بوثائق - بالكلمات والصوت والصورة - قد تكتشـف أنك اتبعت النوع الخاطىء من حفظ الوثائق. ما السـطر الذي اعتاد أدريان على اقتباسه؟ «التاريخ هو ذلك اليقين الذي يحدث عند النقطة التي تلتقي فيها عيوب الذاكرة مع عدم كفاية التوثيق».

لازلـت أقرأ الكثير من التاريخ، وبالطبع تابعت جميع أحداث التاريخ الرسـمي الذي حدث في أيامي - سـقوط الشـيوعية، السـيدة تاتشـر، ٩/١١، الانحباس الحراري. مع مزيج طبيعي من مشـاعر الخوف والقلق والتفاؤل الحذر. لكن لم ينتبني قط

الشعور نفسه، لم أثق به مطلقا، كما أثق بأحداث تتعلق باليونان وروما، أو الإمبراطورية البريطانية، أو الثورة الروسية. لعلني أشعر أكثر بالأمن مع التاريخ الذي تم الاتفاق عليه نوعا ما. أو لعلها عين المفارقة مرة أخرى، إن التاريخ الذي يحدث أمام أعيننا عليه أن يكون الأوضح، ومع ذلك الأكثر ميوعة. إننا نعيش في الزمن، فهو يعرف حدودنا ويميزنا، ومن المفترض بالزمن أن يقيس التاريخ، أليس كذلك؟ لكن إن لم نستطع فهم الزمن، لن نستطيع استيعاب الغموض الذي يحيط بخطاه وتقدمه، إذن ما هي فرصة أن نفهم التاريخ، حتى تلك الأجزاء الصغيرة الشخصية وغير الموثقة عنه؟

حين كنا صغارا كان كل شخص يزيد عمره على الثلاثين يبدو لنا في أوسط العمر، كل شخص فوق الخمسين يبدو مسنا. والزمن، حين يمر، يؤكد أننا لم نكن مخطئين. تلك الفروقات العمرية، التي تبدو مهمة جدا ومتطرفة جدا ونحن صغار السن، تتلاشى. وينتهي بنا المطاف تابعين للتصنيف نفسه، وهو اللاشباب. لم أمانع نفسي بهذا كثيرا.

لكن هناك استثناءات للقاعدة. بالنسبة إلى بعض الناس فالفروقات الزمنية التي تتشكل وقت الشباب لا تتلاشى فعليا أبدا: الكبير يبقى كبيرا، حتى حين تتدلى من كليهما لحى بيضاء. وبالنسبة إلى بعض آخر من الناس، فإن فرقا زمنيا يبلغ، مثلا، خمسة أشهر يعني أن الشخص سيعتقد دائما بشكل خاطئ أنه - أنها - أكثر حكمة ومعرفة من الآخر، مهما توافر الدليل الذي يشير إلى العكس من ذلك. أو ربما علي أن أقول

بســـبب توافر الدليل الذي يشـــير إلى العكس من ذلك. لأن من الواضـــح تماما بالنســـبة إلى مراقب موضوعـــي أن التوازن قد انتقل لمصلحة الشـــخص الأصغر عمرا بفارق بســـيط، فســـوف يصر الشخص الآخر على الافتراض بالأفضلية بطريقة صارمة، بطريقة عصبية.

بالمناســـبة، لازلت أستمع لكثير من موســـيقى دفوراك. ليس الكثيـــر من الســـيمفونيات، في هـــذه الأيام أفضـــل الرباعيات الوترية. أما تشايكوفســـك فقد كان معي شـــأن هؤلاء العباقرة الذين فتنوني في مرحلة الشباب، واحتفظ ببقايا من التأثير علي في أوســـط العمر، ولكن فيما بعد بـــدا، إن لم يكن محرجا، أقل صلة بشكل ما. لا أقول إنها كانت على حق. إذ لا خطأ هناك في أن تكون عبقريا وتســـحر الآخريـــن. بالأحرى هناك خلل ما في الشاب الذي لا يســـحره عبقري. وبالمناسبة، لا أعتقد أن المدرج الصوتي لفيلـــم «رجل وامرأة» عمل عبقري. حتى لم أعتقد هذا في ذلك الحـــين. من ناحية أخرى، أتذكر بين الحين والآخر تيد هيوز وأبتسم لحقيقة أنه في الواقع لم يستنفد حيواناته قط.

علاقتي جيدة مع ســـوزي. بدرجة كافيـــة، على أي حال. أما الجيل الأصغر فلم يعد يشـــعر بالحاجـــة، أو حتى بالالتزام، إلى التواصل. علـــى الأقل، «التواصل» ليس بمعنـــى «اللقاء». إيميل ســـوف يكفي لوالدي، من المؤسف أنه لم يتعلم كيف يبعث رسالة نصيـــة. نعم، إنـــه متقاعـــد الآن، ومازال يبحث عن «مشـــاريع» غامضة، أشك في أنه سينهي أيا منها، لكن على الأقل إنها تبقي العقل يعمل، أفضل من الغولف، ونعم، كنا نخطط للزيارة الأسبوع

الماضي حتى طرأ شـــيء ما. آمل حقا ألا يصاب بألزهايمر، هذا قلقي الأكبر فعلا، حينها لن تســـتطيع أمي أن تســـترجعه، أليس كذلك؟ نعم، إني أبالغ، إني أشـــوه الحقيقة. سوزي لا تفكر بهذه الطريقـــة، أنا متأكد. إن العيش وحيدا له لحظاته من الشـــفقة على الذات والارتياب. أنا وسوزي علاقتنا جيدة.

صديقة لنا - مازلت أقول هذا بشكل غريزي، برغم أن الفترة التي كنا فيها أنا ومارغريت مطلقين أطول من تلك التي أمضيناها في الزواج - كان لها ابن يغني في فرقة روك رديئة. ســـألتها إن كانت ســـمعت أيا من أغانيهم. ذكرت واحدة عنوانها «كل يوم يوم الأحـــد». أذكر أني ضحكت بارتيـــاح لأنه مازال ضجر المراهقين القديم مســـتمرا من جيل إلى آخر. أيضا، مازالوا يســـتخدمون الظـــرف التهكمـــي القديم للهـــروب منه. «كل يوم يـــوم الأحد»، أرجعتني الكلمات إلى ســـنواتي الماضية مـــن الركود، وإلى ذلك الانتظار الفظيع لكي تبدأ الحياة. ســـألت صديقتي عن أغنيات أخـــرى للفرقة. لا، أجابت، هذه أغنيتهم، هذه أغنيتهم الوحيدة. ما كلماتها؟ ســـألت. ماذا تعني؟ حســـنا، ما الســـطر التالي في الأغنية؟ قالت، يبدو أنك لم تفهم، أليس كذلك؟ هذه هي الأغنية كلهـــا. إنهم فقط يكررون الســـطر مرة تلـــو الأخرى، حتى تصل الأغنية إلى النهاية. أذكر أني ابتســـمت. «كل يوم يـــوم الأحـــد»، لن تكون كلمات سيئة تكتب على ضريح، أليس كذلك؟

لقد كان ذلك أحد تلك المغلفات البيضاء الطويلة مع اســـمي وعنوانـــي مكتوبين على ملصقته. لا أدري عنـــك، ولكنـــي عـــادة لا أعجل في فتحها. ذات مرة كانت مثل تلك الرســـائل تعني لي

مرحلة مؤلمة أخرى في طلاقي، ربما لهذا أنا سئم منها. في هذه الأيام، قد تحتوي على إيصال ضريبة على الأسـهم القليلة لدي التي تجني ربحا ضئيلا بشـكل يثير الشفقة، كنت قد اشتريتها حين تقاعدت، أو علـى طلب آخر من إحدى الجمعيات الخيرية التي أدعمها بشـكل دائم. ولهذا نسـيت أمـر المغلف حتى وقت متأخر من اليوم حين كنت أجمع كل الأوراق المهملة في الشقة - حتى آخر مغلف - من أجل إعادة تدويرها. تبين أن المغلف يحتوي على رسالة من شركة محامين لم أسمع بها مطلقا، مسيزر كويل، إنز وبلاك. سيدة ما تدعى إلينور ماريوت كتبت «بشأن ممتلكات السيدة سـارة فورد (متوفاة)». استغرقت فترة من الزمن لأصل إلى هناك.

نحن نعيش على تلك الافتراضات السهلة، أليس كذلك؟ مثلا، أن الذاكرة تسـاوي الأحداث زائد الزمن. لكن الأمر أكثر غرابة من ذلك. من الذي قال إن الذاكرة هي ما نظن أننا نسيناه؟ ويجب أن يكـون واضحا لنا أن الزمـن لا يعمل عمل المثبت، بل المذيب. ولكـن ليس ملائما - ليس نافعا - أن نؤمـن بذلـك، إن ذلـك لا يساعدنا على الاستمرار في حياتنا، لهذا نعمل على تجاهله.

طلب مني أن أؤكد عنواني وأزودهم بنسخة من جواز سفري. وأعلمـت أني ورثت خمسـمائة جنيه و«وثيقتـين». وجدت ذلك محيرا للغاية. بداية، أن أحصل على إرث من شخص اسمه الأول إما أني لم أعرفه قط أو أني نسـيته. وخمسمائة جنيه هو مبلغ محدد للغاية. أكبر من لا شـيء ولكنه ليس بحجم شـيء. ربما سيكون الأمر مفهوما لو علمت متى كتبت السيدة فورد وصيتها.

برغم أنه لو كانت كتبتها منذ زمن بعيد، فإن المبلغ المعادل في هذه الأيام سيكون كبيرا نوعا ما، وحتى هذا سيجعل من الأمر أقل منطقية.

أكدت وجودي، وأصالة شخصي، وعنواني، حيث أرسلت نسخا مصورة من وثائقي. وسألت إذا كان في إمكانهم إعلامي بوقت الوصية. ثم، في إحدى الأمسيات جلست وحاولت أن أعيش مرة أخرى عطلة نهاية الأسبوع المشينة في تشيسلهيرست قبل أربعين عاما تقريبا. بحثت عن أي لحظة أو حدث أو إشارة قد تستحق التقدير والمكافأة. لكن صارت ذاكرتي بشكل متزايد آلية تعيد بيانات صحيحة ظاهريا بشيء من التنوع. حدقت في الماضي، انتظرت، حاولت أن أخدع ذاكرتي بحيث أحولها إلى مسار مختلف. لكن لا فائدة ترجى من ذلك. كنت شخصا واعد ابنة السيدة سارة فورد (المتوفاة) لمدة سنة، شخصا تعالى عليه زوجها وتفحصه بتعال ابنها، واستغلته ابنتها. كان ذلك مؤلما بالنسبة إلي وقتها، لكن بالكاد يقتضي الأمر اعتذارا أمويا بخمسمائة جنيه.

على أي حال، لم يدم ذلك الألم. كما ذكرت سابقا أتحلى بغريزة معينة في البقاء على قيد الحياة. أخرجت بنجاح فيرونكا من عقلي، من تاريخي. وبهذا حين أوصلني الزمن بسرعة إلى أوسط العمر، وبدأت أنظر إلى الخلف لأرى ما انتهت إليه حياتي، متأملا في الطرق التي لم أسلكها، تلك الـ «لو» المخدرة والمقوضة، لم أنتبه لنفسي قط وأنا أتخيل - وحتى ليس للأسوأ، فضلا عن الأفضل - كيف ستكون الأمور مع فيرونكا. آني نعم، فيرونكا لا. ولم أندم قط على السنوات التي قضيتها مع مارغريت، وحتى

رغم طلاقنا. حاولت بكل ما استطعت - أمر لم يكن صعبا - لكن نادرا ما أصل إلى حد تخيل حياة مختلفة بشكل كامل عن الحياة التي عشتها. لا أظن أن ذلك يعد استكانة، إنه أكثر منه قلة خيال أو طموح أو شـيء من هذا القبيل. أفترض أن الحقيقة هي نعم، أني لست غريبا بدرجة تكفي بحيث لم أقم بالأشياء التي انتهيت إلى القيام بها في حياتي.

لم أقرأ رسـالة المحامي مباشرة. عوضا عن ذلك، نظرت إلى المرفق، وهو مغلف طويل قشدي اللون مكتوب عليه اسمي. خط اليـد كنت قـد رأيته من قبل مرة واحدة فقـط في حياتي، ومع ذلـك كان مألوفا. أنتوني وبسـتر المحتـرم، الطريقة التي ينهي بها الصاعدون والهابطون بلولب صغير أخذني إلى شـخص في الماضي عرفته لمدة أسبوع فقط. شخص خط يدها، بثقته وليس بشكله، أشار إلى امرأة قد تكون «غريبة بدرجة كافية» لأن تقوم بأشـياء لم أقم بها. لكن لم أسـتطع أن أعرف أو أخمن ما هي تلك الأشـياء. كان هناك شريط لاصق على الجانب الأمامي من المغلـف عند أعلى منتصفه. كنت أتوقع أن يلتف الشـريط حول المغلف من الخلف ويشكل ختما إضافيا، ولكن يبدو أنه تم قطعه على طول الحافة العليا للمغلف. من المفترض أن الرسـالة كانت مرفقة بشيء آخر.

أخيـرا فتحت الرسـالة وقرأت: «العزيز تونـي، أظن أنه من الصـواب أن تحصـل على ما هـو مرفق. أدريـان تحدث عنك دائما بمودة، وربما تجد في الرسـالة لحظـة من الماضي مثيرة للاهتمـام، إن لم تكن مؤلمة. كما أتـرك لـك القليل مـن المـال.

قد تجد هذا غريبا، ولأصدقك القول، أنا لست متأكدة تماما من دوافعي. على أي حال، أنا آسفة على الطريقة التي عاملتك بها عائلتي قبل سنوات عديدة، وأتمنى لك التوفيق حتى من تحت القبر. المخلصة، سارة فورد. ملاحظة: قد يبدو الأمر غريبا، لكني أعتقد أن الأشهر الأخيرة من حياته كانت سعيدة».

طلبت مني المحامية تفاصيل حسابي البنكي، لكي تدفع التركة بشكل مباشر. كما أضافت أنها ترفق أولى «الوثيقتين» اللتين تركتا لي. وأن الثانية مازالت في حوزة ابنة السيدة فورد. أدركت أن ذلك يفسر الجزء المقطوع من الشريط اللاصق. في الوقت الحالي تحاول السيدة ماريوت استرجاع الوثيقة الثانية هذه. وإجابة عن سؤالي، إن وصية السيدة فورد كانت قد كتبت قبل خمس سنوات.

اعتادت مارغريت القول إن هناك نوعين من النساء: هؤلاء اللائي يكن شديدات الوضوح، وهؤلاء اللائي يحيط بهن الغموض. وأن ذلك أول أمر يستشعره الرجل، وأول شيء يجذبه أو ينفره. بعض الرجال ينجذب لواحد من النوعين، وبعضهم الآخر ينجذب إلى النوع الآخر. مارغريت - لست في حاجة إلى أن أقول لك - من النوع شديد الوضوح، لكن في بعض الأحيان قد تحسد هؤلاء اللائي يثرن، أو يتصنعن، جوا من الغموض حولهن.

«أحبك كما أنت»، قلت لها ذات مرة.

أجابت: «ولكنك تعرفني بشكل واضح جدا الآن». كنا متزوجين لسبع سنوات حينها. «ألن تفضل لو أني كنت غامضة... قليلا؟».

«لا أريدك أن تكوني امرأة غامضة. أعتقد أني سأكره ذلك. إما أن يكون مجرد تصنع، لعبة، أسلوب للإيقاع بالرجل، أو أن تكون المرأة غامضة حتى بالنسبة إلى نفسها، وذلك أسوأ ما في الأمر».

«توني، إنك رجل خبير في أمور الدنيا».

«حسنا، أنا لست كذلك»، قلت، وأنا مدرك أنها كانت تغيظني «لم أعرف عددا كبيرا من النساء في حياتي».

«قد أكون لا أعرف الكثير عن النساء، لكني أعرف ما أحب؟».

«لم أقل ذلك، ولا أعنيه أيضا. لكني أعتقد أنه لأني عرفت بعضا منهن نسبيا فإني أعرف رأيي فيهن. وما أحب فيهن. لو عرفت عددا أكبر، لكنت أكثر حيرة».

قالت مارغريت: «الآن لست متأكدة إن كان علي أن أشعر بالإطراء أم لا».

كان كل ذلك قبل أن ينهار زواجنا، بالطبع. لكن كان لن يدوم لفترة أطول لو كانت مارغريت أكثر غموضا، أستطيع أن أؤكد لك - ولها - ذلك.

وشيء منها مازال عالقا بي على مدى السنين. فمثلا، لو لم أكن أعرفها لاتخذت سبيل التبادل الصبور للرسائل بيني وبين المحامية. لكن لم أرغب في الانتظار بهدوء حتى يصلني مغلف آخر عليه ملصق. بدلا من ذلك، هاتفت السيدة إلينور ماريوت وسألتها عن الوثيقة الأخرى التي تركت لي.

«تصفها الموصية بأنها يوميات».

«يوميات؟ هل تعود للسيدة فورد؟».

«لا. دعني أتأكد من الاسم». توقف. «أدريان فن».

أدريان؟ كيف استحوذت السيدة فورد على يومياته؟ هذا لم يكن سؤالا طرحته على المحامية. كل ما استطعت قوله «لقد كان أحد الأصدقاء». ثم قلت: «على افتراض أنها كانت مرفقة مع الرسالة التي أرسلتها».

«لست متأكدة من ذلك».

«هل رأيت الرسالة نفسك؟».

«لا، لم أرها». كانت طريقتها تتسم بالحذر أكثر من العون.

«هل أبدت فيرونكا فورد أسباب نزعها لليوميات؟».

«قالت إنها لم تكن مستعدة للافتراق عنها».

حسن «ولكنها ملكي».

«بالتأكيد لقد تركت لك في الوصية».

أتساءل إن كان هناك تفصيل قانوني فيما يتعلق بفصل هاتين الوثيقتين «هل تعلمين كيف حصلت عليها؟».

«كانت تعيش بالقرب من أمها في السنوات الأخيرة، كما فهمت. قالت إنها احتفظت بعدة أشياء في حمايتها. في حالة أن المنزل تعرض للسطو. مجوهرات، مال، وثائق».

«هل ذلك قانوني؟».

«حسن، إنه ليس قانونيا، لكنه فعل يتسم ببعد نظر».

لم يبد أننا أحرزنا أي تقدم حتى الآن. «دعيني أضع الأمور بشكل صحيح. كان عليها أن تسلم هذه الوثيقة، اليوميات، لك. أنت طلبتها، وهي رفضت أن تسلمها».

«في الوقت الحالي، نعم، هذه هي الحالة».

«هل يمكنك إعطائي عنوانها؟».
«علي أن أحصل على تخويل منها أولا».
«إذن هلا حصلت على ذلك التخويل؟».

هــل لاحظت كيف أنــك، حين تتحدث إلى محــام، بعد فترة تتوقف عن استخدام لغتك وتنتهي باستخدام لغة تشبه لغتهم؟

كلما بقي وقت أقل في حياتك حرصت على ألا تضيعه. ذلك منطقي، أليس كذلك؟ لكن كيف تســتغل الساعات المتوافرة، هو أمــر آخر علــى الأغلب لم يكن في إمكانــك التنبؤ به حين كنت شــابا. فمثلا، أمضي وقتا طويلا وأنا أنظــف المكان، برغم أني لست شخصا فوضويا. لكن هذه إحدى القناعات المتواضعة التي تأتي مع التقدم في العمر. أنا أهدف إلى الترتيب، أعيد التدوير، أنظف وأزين شــقتي لتحافظ على قيمتهــا. لقد كتبت وصيتي، وتعاملي مع ابنتي وزوجها وأحفادي وزوجتي السابقة، إن لم يكن رائعا، فهو على الأقل مســتقر. أو هذا ما أقنعت نفسي به. لقد حققت حالة من الميل إلى المســالمة، وحتى المسالمة. لأن علاقتي طيبة مع الأشــياء. لا أحب الفوضى، ولا أحب أن أخلف فوضى ورائي. فقد اســتقر اختياري على حرق جثتي، إن كنت مهتما أن تعرف.

ولهذا هاتفت الســيدة ماريوت مرة أخرى وطلبت عنوان ابن الســيدة فورد، جون، المعروف باســم جاك. اتصلت بمارغريت وطلبــت منها موعدا لتنــاول طعام الغداء. وأخــذت موعدا مع محامــيَّ. لا، إني أصور ما قمت كأنــه عظيم. أنا متأكد أن الأخ جاك لديه شخص ما يشــير له باسم «محامي». في حالتي، إنه

ذلك الشــخص الذي يعيش في منطقتي وقام بصياغة وصيتي، لديــه مكتب صغير فوق محــل لبيع الورود ويبــدو أنه ذو كفاءة عالية. كما أني أحبه لأنه لم يحاول أن يســتخدم اســمي الأول أو اقترح أن أســتخدم اســمه الأول. ولهذا أفكر فيه فقط باسم تي جي غانيــل، وحتى لم أخمن ما اختصارات الحروف الأولى. هل تعرف ما أخشــاه؟ أن أكون عجوزا في مستشــفى وتناديني ممرضات لم ألتق بهن من قبل باســم أنتوني أو، ما هو أســوأ، توني. دعني أضع ذلك في ذراعك يا توني. تناول المزيد من هذا الحســاء يا توني. لقد قمت بحركة ما يــا أنتوني. بالطبع، حين يحدث ذلك ســتكون زيادة الألفة التي يبديها الممرضات آخر ما يقلقني، لكن حتى مع ذلك الأمر.

قمت بعمل غريب بعض الشــيء حين التقيت بمارغريت أول مرة. ألغيت فيرونكا من قصة حياتي. تظاهرت أن آني كانت أول حبيبة لي. أعرف أن بعض الرجال يبالغون بشــأن عدد الفتيات، قمــت بالعكس. فقد رســمت خطا وبــدأت من جديــد. كانت مارغريت مندهشة قليلا لأني كنت بطيئا دون المستوى المطلوب، ليس فيما يتعلق بفقداني عذريتي بل بدخولي في علاقات جدية، ولكن أيضا، اعتقدت أن الأمر حينها أعجبها بعض الشيء. قالت شيئا عن الحياء كصفة جذابة في الرجال.

الجزء الأغرب أنه كان ســهلا بالنســبة إلــي أن أعطي تلك النســخة مــن تاريخي لأن ذلك مــا كنت أقنع نفســي به طوال الوقت. لقد اعتبــرت الزمن الذي أمضيته مــع فيرونكا تجربة فاشــلة - ازدراءها لي ومذلتي - ومحوته من الوثائق. لم أحتفظ

بأي رسائل، عدا صورة واحدة فقط لم أنظر إليها لمدة طويلة من الزمن.

ولكن بعد سنة أو سنتين من الزواج، حين تحسنت صورتي عن نفسي وصرت واثقا تماما بعلاقتنا، أخبرت مارغريت الحقيقة. استمعت وسألت أسئلة مرتبطة بالموضوع وتفهمت. طلبت أن ترى الصورة - تلك التي التقطت في ميدان ترافالغار - وتفحصتها، أومأت، لم تعلق. كان ذلك جيدا. لم يكن لدي حق بتوقع أي شيء، فضلا عن كلمات إطراء لحبيبتي السابقة. وهو أمر على أي حال لم أرغب فيه. أردت فقط أن أشرح ما حدث في الماضي وأطلب من مارغريت أن تغفر لي كذبتي الغريبة عنه. وهو ما فعلته.

السيد غانيل رجل هادئ الطبع نحيل الجسم لا يمانع بالصمت. على أي حال، إن صمته يكلف عملاءه مثل كلامه.

«سيد وبستر».

«سيد غانيل».

وهكذا تعاملنا معا في الخمس وأربعين دقيقة التالية حيث زودني بنصائح مهنية دفعت ثمنها. قال لي إن اللجوء للشرطة ومحاولة إقناعهم بتوجيه تهمة السرقة ضد امرأة كبيرة السن فقدت أمها مؤخرا، سيكون، في رأيه، عملا أحمق. أعجبني ذلك. ليست النصيحة بل الطريقة التي عبر بها. «أحمق» أفضل بكثير من «لا ينصح به» أو «غير لائق». وقد نصحني أيضا ألا أزعج السيدة ماريوت.

«ألا يحب المحامون أن يزعجوا، سيد غانيل؟».

«فلنقل إن الأمر يختلف حين يكون المزعج هو الزبون. ولكن في حالتنا هذه عائلة فورد هي التي تدفع الفواتير. وسوف تدهش حين تعرف كيف تنزلق الرسائل إلى قاع الملف».

نظرت من حولي إلى المكتب المصبوغ باللون القشدي والنباتات المصفوفة والرفوف التي تتخذ هيئة السلطة القانونية والنسخة المصورة للوحة عن الريف الإنجليزي، وخزائن الملفات. التفت إلى السيد غانيل.

«بمعنى آخر، لا تجعلها تبدأ بالظن أني شخص مخبول».

«أوه، إنها لن تظن ذلك أبدا، سيد وبستر. و«مخبول» من الصعب أن تكون اصطلاحا قانونيا».

«ماذا يمكنك أن تقول بدلا من ذلك؟».

«قد نستقر على كلمة «مضطرب»، هذه كلمة قوية بدرجة تكفي».

«حسن. كم يستغرق الأمر لاسترجاع ممتلك ما؟».

«إن سار الأمر بشكل صحيح... ثمانية عشر شهرا، سنتان».

«سنتان؟ لم أكن أنوي الانتظار تلك المدة الطويلة للحصول على يوميات».

«حسنا. تتعامل مع المشكلة الرئيسية أولا، لكن هناك دائما أمورا أخرى تدخل في القضية. فقدان شهادات الأسهم. توافق الأرقام مع الدخل. وأحيانا قد تضيع الرسائل من مكانها».

«أو تنزلق إلى قاع ملف».

«وذلك أيضا، سيد وبستر».

«هل لديك أي نصحية أخرى؟».

«سأتوخى الحذر في استخدام كلمة سرقة، قد تتشتت الأمور بطريقة نحن في غنى عنها».

«لكـن أليس ذلك مـا قامت به بالفعـل؟ ذكرني بالاصطلاح القانوني حين يكون شيء ما شديد الوضوح».

«ضرر بسبب سوء الإدارة».

«نعم هذا هو».

توقف السـيد غانيل. «حسنا، القضايا الجنائية غالبا لا تمر على مكتبي، لكن العبارة الرئيسية بشأن السرقة هي، كما أذكر، النية بشكل دائم في حرمان المالك من الشيء المسروق. هل لديك أي فكرة بشأن نية الآنسة فورد أو حالتها الذهنية العامة؟

ضحكت. كانت إحدى مشاكلي قبل أربعين سنة تقريبا هي أن تكون لدي فكرة عن حالـة فيرونكا الذهنية. ولهذا على الأغلب لقـد ضحكت بالطريقة الخطأ، والسـيد غانيل ليس رجلا غير فطن.

«لا أريد أن أتدخل، سـيد وبسـتر، ولكن هل هناك شيء في الماضي، ربما بينك وبين الآنسـة فـورد، قد يكون ذا صلة بحيث يصل الأمر في النهاية إلى دعاوى مدنية، أو بالطبع جنائية؟».

شـيء بيني وبين الآنسة فورد؟ فجأة ظهرت صورة في ذهني بينما كنت أحدق في خلفيات صور افترضت أنها صور عائلية.

«لقد جعلت الأمر جليا، سيد غانيل. سوف أضع طابعا بريديا من الدرجة الأولى حين أدفع فاتورتك».

ابتسـم. «إن ذلـك أحد الأشـياء التي نلاحظهـا. في بعض الحالات».

بعد أسبوعين استطاعت السـيدة ماريوت أن تزودني بعنوان البريد الإلكتروني للسـيد جون فورد. رفضت الآنسـة فورد أن تعطي تفاصيل عنوانها. ومن الواضح أن السـيد فورد كان نفسه حذرا: فهو من دون رقم هاتف، من دون عنوان بريدي.

تذكـرت الأخ جاك وهو يجلس على الأريكـة بثقة ولامبالاة. كانت فيرونكا تلهو بشعري وتسأل: «سوف يصلح، أليس كذلك؟». وجاك غمزني. لم أبادله الغمز.

كنت رسـميا في إيميلـي. قدمت له التعـازي. تظاهرت أن الذكريات في تشيسلهيرسـت كانت أكثر سعادة مما كانت عليه. شـرحت الوضع وطلبت من جاك أن يمارس كل ما لديه من نفوذ لكي يقنع أخته بتسـليمي «الوثيقة» الثانية التي وفق إدراكي هي يوميات صديقي أيام المدرسة أدريان فن.

بعد نحو عشـرة أيام، ظهر اسم جاك في وارد بريدي. كانت هناك مقدمة طويلة عن السـفر وشـبه التقاعد، والرطوبة في سـنغافورة، والواي فاي والمقاهـي العصرية. ثم: «على أي حال، يكفي دردشـة. يؤسـفني أن أعلمك أني لست وصيا على أختي، ولـم أكن كذلك في يوم ما، هـذا بيني وبينك فقط. فقد توقفت عن محاولـة تغيير رأيها منذ سـنوات. وبصراحة، محاولتي أن أتحدث إليها في صالحك قد يؤدي بسـهولة إلى تأثير عكسي. هـذا لا يعني أني لا أتمنى لك حظا طيبا بشـأن تلك المسـألة الشـائكة. آه - هـا قد وصلت عربة الركشـة - علي أن أنطلق. تحياتي، جون فورد».

لِمَ شعرت بأن هناك شيئا غير مقنع في ذلك كله؟ لِمَ تصورته

علـى الفور وهو يجلس بهدوء في البيـت - في منزل كبير فاره يقـع خلف ملعب للغولف في سـري - ويضحك علي؟». لقد كان مـزوده الإلكتروني aol.com، وهو أمر لم يزودني بأي معلومة. نظرت إلى زمن الإيميل، فكان ملائما لكل من سنغافورة وسري. لِمَ تصورت الأخ جاك، وقد رأى عودتي، يرغب في أن يلهو قليلا؟ لأنـه في هذا البلـد الفروقات الطبقية تقـاوم الزمن أكثر مما تقاومه الفروقات العمرية. فعائلة فورد كانت أكثر ثراء من عائلة ويبستر في تلك الأيام، وعلى الأغلب سـوف تبقى كذلك. أو أن هذا مجرد ارتياب من طرفي؟

لا شيء يمكن فعله، بالطبع، إلا أن أرسل له إيميلا أطلب منه بأدب إن كان يستطيع أن يزودني بعنوان فيرونكا.

حين يقول الناس: «إنهـا جميلة المظهر»، فهم دائما ما يعنون «لقـد كانت جميلة المظهر». لكـن حين أقول ذلك عن مارغريت، فإنـي أعني ما أقول. إنها تظن، تعرف، أنها تغيرت، وقد تغيرت، بيد أنها تغيرت بالنسـبة إلى الآخريـن وليس إلي. من الطبيعي أني لا أسـتطيع أن أتحدث إلى مدير المطعم. ولكن سـوف أعبر عـن ذلك كالتالي: إنها ترى مـا ذهب فقط، أنا أرى ما ظل على حاله. شعرها لم يعد مسترسلا على ظهرها أو راجعا إلى الخلف بالطريقة الفرنسـية، في هذه الأيام إنه مقصوص إلى حد يصل إلى جمجمتها وتركت الشـعر الأبيض على حاله. ذلك الفستان الريفي الذي اعتادت أن ترتديه استبدلته بسترة صوفية وبنطال أنيـق التفصيل. بعض من النمش الـذي أحببته ذات مرة أصبح الآن أقـرب إلى البقع الكبدية. لكن مـع ذلك العينان هما اللتان

ترياني، أليس كذلك؟ ففيهما عثرنا على شريكنا، ومازلنا نجده. العينان أنفسهما اللتان كانتا في الرأس نفسه حين التقينا أول مرة، ونمنا معا، وتزوجنا، وذهبنا في شهر عسل، واشتركنا في الرهن على البيت، وتسوقنا، وقضينا العطل، وأحب أحدنا الآخر، وأنجبنا طفلا معا. وكنا على الحالة نفسها حين انفصلنا.

ولكن ليس العينان فقط. فهيكل العظام يبقى على حاله، كما تبقى الإيماءات الغريزية، والطرق الأخرى التي جعلتها هي وطريقتها، حتى بعد كل هذا الوقت والمسافة، في تعاملها معي.

«إذن، لم كل ذلك، توني؟».

ضحكت. لم نلق نظرة على قائمة الطعام بعد، ولكن لم أجد السؤال سابقا لأوانه. هذه هي مارغريت. حين تقول إنك لست متأكدا بشأن إنجاب طفل ثان، هل تعني أنك لست متأكدا بشأن إنجاب طفل ثان مني؟ لم تعتقد أن الطلاق قائم على توزيع اللوم؟ ماذا تنوي أن تفعل بما تبقى من حياتك الآن؟ لو كنت ترغب فعلا في قضاء عطلة معي، ألن تحسن صنيعا إذن بحجزك بعض التذاكر؟ ولم كل ذلك، توني؟

بعض الناس يشعرون بعدم الطمأنينة بشأن الأحباء السابقين لشركائهم، كأنهم مازالوا يخشونهم. أنا ومارغريت مستثنيان من ذلك. هذا لا يعني أنه في حالتي كان هناك طابور طويل من الحبيبات السابقات. وإن كانت قد سمحت لنفسها بإعطائهن ألقابا، هذا من حقها، أليس كذلك؟

«في الواقع، من بين جميع الناس، إن ذلك يتعلق بفيرونكا فورد».

«كعكة الفواكه». عرفت أنها ستقول ذلك، ولهذا لم أجفل.
«هل عادت في الصورة بعد كل تلك السنين؟ كنت قد انتهيت من ذلك، توني؟».

أجبت: «أعرف». من المحتمل أنه عندما استجمعت قواي في النهاية وأخبرت مارغريت عن فيرونكا، وضعت الأمر كله على حد شفرة وجعلت من نفسي مغفلا ومن فيرونكا إنسانا غير مستقر أكثر مما كانت عليه بالفعل. لكن بما أن قصتي هي التي تسببت في اللقب، لم أستطع الاعتراض عليه. كان كل ما في وسعي فعله هو ألا أستخدم اللقب.

أخبرتها القصة، ما فعلته، كيف تعاملت مع الأمور. كما أقول دائما، جزء من مارغريت بقي عالقا بي على مدى السنين، وربما هذا ما جعلها تومىء بالموافقة أو التشجيع وأنا أسرد لها القصة.

«لم في رأيك تركت أم كعكة الفواكه لك خمسمائة جنيه؟».

«ليست لدي أدنى فكرة».

«وتعتقد أن الأخ كان يماطلك؟».

«نعم. أو على الأقل لم يكن على طبيعته معي».

«ولكنك لا تعرفه البتة، أليس كذلك؟».

«لقد التقيت به مرة واحدة فقط، هذا صحيح. أظن أني فقط مرتاب من العائلة كلها».

«لماذا في رأيك أن الأم هي التي حصلت على اليوميات في النهاية؟».

«ليست لدي فكرة».

«ربما تركها أدريان مع الأم لأنه لم يثق بكعكة الفواكه».

«هذا منطقي».

ساد الصمت. تناولنا الطعام. ثم طرقت مارغريت بشوكتها على طبقي.

«وإذا ما حدث ودخلت هذا المقهى الآنسة فيرونكا التي من المفترض أنها مازالت عزباء وجلست إلى طاولتنا، كيف ستكون ردة فعل السيد أنتوني وبستر المطلق منذ فترة طويلة؟».

دائما تضع أصبعها على موضع الألم، أليس كذلك؟

«لا أظن أني سأكون سعيدا جدا برؤيتها».

شيء ما في الرسمية التي طغت على نبرة صوتي جعل مارغريت تبتسم. «أستكون مسحورا؟».

احمر وجهي خجلا. لم تر رجلا أصلع في الستين من عمره يحمر وجهه خجلا؟ أوه، إن ذلك يحدث، كما يحدث لصبي في الخامسة عشرة من عمره، أشعر تتناثر على جسمه البقع. ولأن ذلك نادر الحدوث، فإن تلك اللحظة قد تعيد المحمر وجهه إلى الوراء في الزمن حيث لم تكن الحياة أكثر من سلسلة طويلة من الإحراجات.

«أتمنى لو أني لم أخبرك بذلك».

تناولت شوكة مملوءة بسلطة الجرجير والطماطم.

«متأكد أنه لا يوجد بعض النيران التي لم تنطفئ في قلبك، سيد وبستر؟».

«متأكد جدا».

«حسن إذن، ما لم تتصل بك، فإني سأترك الأمر على حاله. اصرف الشيك وخذني في إجازة بميزانية مخصصة وانس الأمر.

مائتان وخمسون لكل منا قد تأخذنا في إجازة إلى جزر القناة».

«أحب ذلك حين تغيظيني»، قلت: «حتى بعد كل هذه السنوات».

مالـــت على الطاولة وربتت على يدي. «من الجميل أننا مازلنا مغرمـــين ببعضنا. ومـــن الجميل أني أعرف أنك لـــن تقوم أبدا بالحجز لتلك الإجازة».

«هذا لأني أعرف أنك لا تعنين ذلك».

ابتسمت للحظة، بدت مبهمة تقريبا. لكن لا تستطيع مارغريت أن تكـــون مبهمة، وهي الخطوة الأولـــى نحو امرأة الغموض. فلو أرادت منـــي أن أنفق المال على إجازة لاثنـــين، لقالت ذلك. نعم، أدرك أن هذا ما قالته بالفعل، ولكن...

ولكن على أي حال. «لقد ســـرقت شـــيئا لي»، قلت ذلك ربما بشيء من التذمر.

«كيف تعرف أنك تريد ذلك الشيء؟».

«إنها يوميات أدريان. إنه صديقي. كان صديقي. إنها لي».

«لـــو كان صديقك يرغـــب في أن يعطيـــك يومياته، لكان في إمكانـــه أن يتركها لك قبل نحو أربعين عاما، ولكان قد اســـتثنى الوسيط. أو الوسيطة».

«نعم».

«في رأيك ماذا يوجد فيها؟».

«ليســـت لدي فكرة. إنها لي». اكتشفت في تلك اللحظة سببا آخر لإصراري. كانت اليوميات دليلا، كانت - قد تكون - وثيقة. قد تزعزع التكرار المبتذل للذاكرة. قد تؤدي إلى تحفيز شيء ما برغم أني لا أعرف ما هو.

«حســنا، يمكنك دائما أن تعثر على المــكان الذي تعيش فيه كعكة الفواكه. لم شــمل الأصدقاء، دليل الهاتف، محقق خاص. اذهب إلى هناك، اقرع الجرس، اطلب ما يخصك».

«لا».

«هذا يترك لنا خيار السطو»، اقترحت ذلك بابتهاج.

«أنت تمزحين».

«إذن اتــرك الأمــر. إلا إن كانت لديك، كمــا يقولون، قضايا عالقة من الماضي تريد أن تواجهها لكي تمضي في حياتك. ولكن هذا ليس طبعك، توني، أليس كذلك؟».

«لا، لا أعتقد ذلك»، أجبت بحذر شــديد. لأن جزءا مني كان يتساءل، بعيدا عن اصطلاحات العلاج النفسي، إذا ما كان هناك شــيء من الصدق فــي الأمر. ســاد الصمت. نظـفت طــاولتنا. لم يكن لدى مارغريت أي مشكلة في قراءة أفكاري.

«من المؤثر جدا أن أجــدك بذلك العند. أظنها إحدى الطرق لكي لا نفقد الحبكة حين نصل إلى هذا العمر».

«لا أظن أني كنت سأتصرف بشكل مختلف قبل عشرين سنة».

«على الأرجح لا». أشارت لإحضار الفاتورة. «لكن دعني أخبرك قصة عن كارولاين. لا، أنت لا تعرفها. فهي صديقة تعرفت عليها بعد انفصالنا. لديهــا زوج وطفلان وفتاة تقوم بالأعمال المنزلية لــم تكن مطمئنة بشــأنها. لم يكن لديها أي شــكوك مخيفة أو شيء من هذا القبيل. فقد كانت الفتاة تتصرف بأدب في معظم الأوقات، ولم يشــك منها الأطفال. كل ما في الأمر أن كارولاين شــعرت بأنها لا تعرف فعلا الشخص الذي تترك أطفالها معه.

ولهـــذا طلبت مـــن صديقة - لا. ليس أنـــا - النصيحة - ابحثي فـــي أغراضهـــا - قالت الصديقـــة: ماذا؟ حســـن، من الواضح أنك مرتابـــة في الأمر. انتظري حتى تخرج في المســـاء، ابحثي فـــي غرفتها، اقرئي رســـائلها. هذا ما كنت ســـأفعله. هكذا في المرة التالية حين خرجت الفتـــاة، بحثت كارولاين في أغراضها. ووجدت يوميات الفتاة. وقرأتها. والتي كانت حافلة بالتهجمات، مثل - إني أعمل عند بقرة حقيقية، والزوج لا بأس به أمسكت به وهو ينظر إلى جســـدي، لكن الزوجة امرأة حقيرة سخيفة، وهل تعرف مـــا تفعل بهؤلاء الأطفال المســـاكين؟ لقد كان هناك كلام صعب جدا جدا».

سألت: «إذن، ماذا حدث؟ هل طردت الفتاة».

«توني»، أجابت زوجتي السابقة، «هذا ليس المغزى من القصة».

أومأت. تأكدت مارغريت من الفاتورة متفحصة كل جزء منها بطرف بطاقة ائتمانها.

لقد قالت شـــيئين آخرين على مدى الســـنين: أن هناك بعض النساء لسن غامضات أبدا، لكن يصبحن كذلك بسبب عدم قدرة الرجال على فهمهن. وأنه، في رأيها، جميع كعكات الفواكه، يجب أن يغلـــق عليهن في علـــب عليها صورة رأس الملكـــة. لا بد أني أخبرتها أيضا عن ذلك الجزء من حياتي في بريستول.

مر أسبوع تقريبا، وظهر اسم الأخ جاك على قائمة وارد البريد مـــرة أخرى. «ها هو إيميل فيرونكا، ولكن لا تعلمها أنك حصلت عليه مني. ســـوف تحول حياتي إلى جحيم. تذكر القرود الثلاثة الحكيمة، لم أر شرا، لم أسمع شرا، لم أتكلم شرا. السماء زرقاء

هنا، أرى منظرا لجسر سيدني هاربر تقريبا. آه، ها قد وصلت عربة الركشة لتقلني. تحياتي. جون ف».

دهشت. توقعت ألا يمد يد العون لي. لكن ماذا كنت أعرف عنه أو عن حياته؟ فقط ما استقرأته من ذكرياتي عن عطلة الأسبوع تلك منذ زمن بعيد. لقد افترضت دائما أن ولادته وتعليمه منحاه مزايا فوقي وقد حافظ عليها من دون جهد حتى الوقت الحاضر. تذكرت أدريان حين قال إنه قرأ عن جاك في مجلة ما للطلبة ولكن لم يتوقع أن يلتقي به (لكن لم يتوقع أيضا أن يواعد فيرونكا). ثم أضاف بلهجة مختلفة أكثر قسوة: «أكره طريقة الإنجليز في عدم جديتهم بالنسبة إلى كونهم جديين». لم أعرف قط - لأني لم أسأل قط لغبائي - على أي أساس بنى اعتقاده ذلك.

يقولون إن الزمن يعثر عليك، أليس كذلك؟ لعل الزمن عثر على الأخ جاك وعاقبه على عدم جديته. والآن بدأت أضع تفاصيل لحياة مختلفة لأخ فيرونكا، حياة امتلأت فيها سنوات الدراسة في ذاكرته بالسعادة والأمل، بالطبع مثل تلك الفترة حين حققت حياته لفترة وجيزة ذلك الإحساس بالانسجام الذي نطمح فيه جميعا. تخيلت جاك بعد التخرج وقد حصل على عمل عن طريق المحسوبية في إحدى تلك الشركات العالمية الضخمة. تخيلته وقد نجح في العمل في البداية، ثم، بشكل تدريجي، لم يحقق النجاح المطلوب. فهو شاب يرتاد النوادي وذو أخلاق حسنة، لكنه يفتقر إلى تلك الحماسة المطلوبة في عالم متغير. تلك النهايات المتعجلة والمبتهجة في رسائله ومحادثاته بدت

بعد فترة أنها تتم عــن العجز وليس المهارة. وبرغم أنه لم يطرد بالضبط، فإن الاقتراح كان واضحا تماما بشــأن التقاعد المبكر مع القيام بالعمل العاجل بين الحين والآخر. ربما كان مستشــارا فخريا متجولا، مساعدا للمدير المحلي في المدن الكبرى، خبيرا في إصلاح الخلل في المدن الصغرى. وهكذا فقد أعاد تشــكيل حياته، ووجد أسلوبا آخر يمكن تصديقه في تقديم نفسه كإنسان ناجح. «أرى تقريبا منظرا لجســر ســيدني هاربر». تخيلته وقد حمل حاســوبه المحمول إلى شرفات المقاهي المزودة بالواي فاي، لأن ذلــك كان أقل ضجرا من العمل في غرفة أحد الفنادق يرى منها عددا من النجوم أقل مما اعتاد أن يراه في الماضي.

ليســت لدي فكــرة إن كانت الشــركات الكبــرى تعمل بتلك الطريقة، ولكني عثرت على طريقة أفكر بها في الأخ جاك بشكل غير مزعج. حتى استطعت أن أرحله من ذلك المنزل الكبير المطل على ملعب الغولف. هذا لا يعني أني ســوف أذهب إلى حد أبعد وأبدأ بالشفقة عليه. وهذه هي النقطة الرئيسية، لا أدين له بأي شيء أيضا.

«العزيزة فيرونكا»، بدأت رسالتي، «لقد تفضل أخوك بإعطائي عنوان بريدك الإلكتروني...»،

لقــد خطر لي أن ذلك قــد يكون أحد الفروق بين الشــباب والشــيوخ: حين نكون شــبابا نخترع مســتقبلا مختلفا لأنفسنا، وحين نكبر، فإننا نخترع ماضيا مختلفا لغيرنا.

كان أبوها يقود ســيارة من طراز هامبر سوبر سنايب. لم تعد السيارات تحمل أســماء مثل هذه، أليس كذلك؟ أنا أقود سيارة

فولكســفاغن بولو. ولكن هامبر سوبر سنايب، تلك كانت كلمات تريح اللســان بسلاسة مثل: هامبر سوبر ســنايب. آرمسترونغ ســيدلي ســابفاير. جويت جافلين. جينســن إنترســيبتر. حتى وولسلي فارينا وهاليمان مينكس.

لا تسئ فهمي. أنا لست مهتما بالسيارات، سواء كانت قديمة أو جديدة. أنا فضولي نوعا ما بشــأن السبب وراء تسمية سيارة صالون ضخمة نســبة إلى طريدة صغيرة مثل طائر الباكســين، وإن كانت ســيارة مينكس لها طبيعة أنثويــة صارخة. ومع ذلك لست فضوليا بدرجة تكفي لأن أكتشف الإجابة. في هذه المرحلة أفضل ألا أعرف.

ولكن كنت أقلب في رأســي مســألة الحنين، وإن كنت أعاني منها. بالتأكيد أنا أصاب بالفتور بشــأن ذكرى ما لشيء تافه في الطفولة، ولا أريد أن أخدع نفســي بشكل عاطفي بشأن شيء لم يكن حتى حقيقيا في ذلك الحين، مثل حب في المدرسة القديمة وشــيء من هذا القبيل. لكــن إن كان الحنين يعني التذكر القوي لعواطف جياشــة، والندم على أن تلك العواطف لم تعد موجودة في حياتنا، حينها إذن أعترف بذنبي. أنا أشــعر بالحنين للزمن الماضــي الذي أمضيته مع مارغريت، لولادة ســوزي وســنواتها الأولــى، للرحلــة التي ذهبت فيها مع آنــي. وإن كنا نتحدث عن أحاســيس قوية لن نشــعر بهــا مرة أخرى، أفترض أني أشــعر بالحنــين لذكرى ألم، ولذكرى متعــة. وهذا يمهد الطريق، أليس كذلك؟ كما أنه يؤدي مباشرة إلى قضية الآنسة فيرونكا فورد.

«ثمن الدم؟».

نظرت إلى الكلمات ولم أستطع فهمها. فقد مسحت رسالتي وعنوانهـــا، ولم توقـــع ردها، وأجابت بعبارة فقـــط. كان علي أن أســـترجع إيميلي الذي أرسلته وأقرأه مرة أخرى لكي أفهم كيف يمكن لكلمتين فقط أن تشـــكلا من ناحية نحوية ردا لسؤالي عن سبب ترك أمها لي خمسمائة جنيه. ولكن لم يكن الإيميل مفهوما أكثـــر من ذلك. لم يُرَق أي دم. جرح كبريائي، هذا صحيح. ولكن لم تكـــن فيرونكا تعني أن أمها قدمت لي المـــال لقاء الألم الذي سببته ابنتها لي، أليس كذلك؟ أو أن الأمر كذلك؟

في الوقت نفســـه من المنطقي أن فيرونـــكا لم تعطني إجابة بســـيطة، لم تقل أو تفعل ما أملت أو توقعـــت. وبهذا فقد كانت منسجمة مع ذاكرتي عنها. بالطبع، في بعض الأحيان كنت أميل إلـــى أن أنزع عنها صفة امرأة الغموض، كنقيض لامرأة الوضوح التـــي تزوجتها مجســـدة في مارغريت. صحيـــح، لم أعرف أين مكاني معها، لم أســـتطع أن أقـــرأ قلبها أو عقلهـــا أو دوافعها. ولكـــن الغموض هو لغز تريد أن تحله. لم أرغب في أن أحل لغز فيرونـــكا، وبالتأكيد ليس في هذا الوقت المتأخر من العمر. لقد كانـــت امرأة صعبة للغاية قبل أربعين ســـنة - ومـــن الأدلة التي أظهرتها تلك الاســـتجابة ذات الكلمتين والأصبعين - لم يبد أن التقدم في العمر جعلها لينة العريكة. ذلك ما قلته لنفسي بحزم.

لكن لم علينا أن نتوقع أن التقدم في العمر يلين من عريكتنا؟ إن لـــم تكن مكافأة الجدارة مســـألة تعني الحيـــاة، لم إذن على الحياة أن تهتم بمنحنا أحاســـيس مريحة ودافئة نحو النهاية؟ ما الهدف التطوري الذي قد يخدمه الحنين؟

لــدي صديق كان قد تدرب على مهنــة المحاماة، ثم نفر منها ولم يمارسها قط. قال لي إن الفائدة الوحيدة التي جناها من كل تلك السنين الضائعة هي أنه لم يعد يخاف القانون أو المحامين. وشــيء من هذا القبيل حدث لي بشــكل عام، أليس كذلك؟ كلما تعلمت أكثر، قل خوفك. «تعلم» ليس بمعنى الدراسة الأكاديمية، بل بمعنى الفهم العملي للحياة.

ربمــا كل ما أردت قوله هو أنه بعد أن خرجت مع فيرونكا منذ ســنوات، لم أعد خائفا منها الآن. وهكذا بدأت حملة الإيميلات. كنت مصمما على أن أكون مؤدبا، غير مزعج، مثابرا، مملا، ودودا، وبكلمات أخرى، أن أكذب. بالطبع، إن محو إيميل يستغرق جزءا من الثانية، لــكن أيضــا اســتبدال الإيمــيل الــذي محــوته لا يستغرق وقتا طويلا. ســوف أنهكها باللطف، وســوف أحصل على يوميات أدريــان. لم تكن هناك «نيران غير مطفئة فــي قلبي»، لقد أكدت لمارغريت هذا الأمر. أما بالنسبة إلى نصيحتها العامة، دعني أقل إن إحدى الفوائد التي تجنيها من كونك زوجا ســابقا أنك لن تعود في حاجة إلى تبرير سلوكك. أو أن تنفذ الاقتراحات.

كان في إمكاني أن أميز أن فيرونكا كانت مرتبكة من طريقتي. في بعض الأحيان كانت ترد باقتضاب وبغضب، غالبا وليس دائما. ولم تشــعر بالإطراء بمعرفتها القاعــدة المتبعة في خطتي. قرب نهاية زواجنا، كانت الفيلا المتينة التي عشــت فيها مع مارغريت فــي الضواحي قد بدأت تعاني قليلا مــن الهبوط. فقد ظهرت الشــقوق هنا وهناك، وبدأت أجزاء من الرواق والجدار الأمامي بالانهيــار (لا. لم أفكر في هذا كرمز). تجاهلت شــركة التأمين

حقيقــة أن ذلك الصيف كان جافا كما هــو معروف، وقررت أن تلقي اللوم على شــجرة الليم في مقدمة الحديقة. لم تكن شجرة جميلة بشكل خاص، ولم أكن مغرما بها لأسباب عدة: أنها كانت تحجــب الضوء عن الغرفة الأمامية، وتســقط مــادة دبقة على الرصيف، وتتعلق فوق الشــارع بطريقة كانت تشجع الحمام على الرقود هناك والتغوط على الســيارات المصطفة تحتها. لاسيما سيارتنا.

كان اعتراضــي على قطعهــا قائما على مبــدأ، ليس مبدأ الحفــاظ على مخزون البلد من الأشــجار، بل مبدأ عدم التملق للبيروقراطيين غير المرئيين وخبيري العناية بالأشجار بوجوههم الطفولية ونظريات اللوم الحديثة التي تقدمها شركات التأمين. أيضا، أحبت مارغريت الشجرة كثيرا. وهكذا تجهزت لحملة دفاع طويلة. شككت في نتائج خبيري العناية بالأشجار وطالبت بحفر حفرات إضافيــة للفحص لتؤكد أو تفند وجود جذيرات بالقرب من أساس البيت، دفعت بحجة أنماط الطقس، والحزام الطيني العظيم لمدينة لندن، وبفرض حظر لاستخدام خراطيم المياه على مستوى المنطقة، وهكذا. كنت مؤدبا وحازما، قلدت لغة خصومي البيروقراطيــين، أرفقت بشــكل مزعج نســخا من المراســلات الســابقة لكل رســالة جديدة، طالبت بالمزيد مــن الفحوصات للموقع واقترحت اســتخدامات إضافية للأيدي العاملة. مع كل رســالة اســتطعت أن أخترع طلبا آخر كانوا يمضون وقتهم في التفكير فيه، وإذا لم يردوا على طلبي فإني في الرســالة التالية، بدلا من تكرار الطلب، أشــير إلى الفقــرة الثالثة أو الرابعة من

رســالتي السابعة عشــرة، التي عليهم أن يبحثوا عنها في الملف الذي كان يزداد ســماكة كل يوم. كنت أتوخى الحذر في ألا أبدو مخبولا، بل شــخصا ممــلا متحذلقا لا يمكــن تجاهله. أحببت تخيلهم وهم يتأوهون ويتذمرون في كل مرة تصل رســالة أخرى مني، كنت أعرف أنهم عند نقطة ما ســيكون من المنطق بالنسبة إليهم أن يغلقوا القضية. في النهاية بعد أن نفد صبرهم اقترحوا إزالة ثلاثين في المائة من أغصان شجرة الليم، وهو حل قبلت به مع تعبيري العميق بالأسف وإحساس بابتهاج كبير في داخلي.

فيرونكا، كما توقعت، لم تحب أن أعاملها كما عاملت شــركة التأمين. ســوف أعفيك من رتابة المراسلات بيننا وأختصر ذلك إلى أول نتيجة عملية. استلمت رسالة من السيدة ماريوت مرفقا معهــا ما وصفته بـ «جزء مــن الوثيقة المتنازع عليها». عبرت عن أملها أن تشــهد الأشــهر القليلة المقبلة اســتعادة كاملة لتركتي. اعتقدت أن ذلك ينبئ بكثير من التفاؤل.

تبين أن «الجزء» هو نسخة مصورة من جزء آخر. لكن - حتى بعد أربعين ســنة - عرفت أنها نســخة طبــق الأصل. فقد كان أدريان يكتب بخط مائل مميــز وبطريقة غريبة في كتابة حرف «g»، لا حاجة إلى القول إن فيرونكا لم ترسل لي الصفحة الأولى، أو الأخيرة، أو أشارت إلى ذلك الجزء الذي انتزع من اليوميات. هذا إن كانت كلمة «اليوميات» مازالت الكلمة الصحيحة لوصف نص كتب بفقرات مرقمة. هذا ما قرأت:

٤ - ٥ مسألة التراكم. إذا كانت الحياة رهانا، ما الشكل الذي يتخذه الرهان؟ على مضمار الســباق مراكم الآلة الحاســبة هو

رهـــان يدور على الأرباح التـــي تجنى من نجاح أحد الخيول لكي يحتكر الرهان على الحصان التالي.

٥ - ٥ إذن (أ) إلـــى أي مـــدى يمكـــن أن يعبـــر عن العلاقات الإنسانية بصيغة رياضية أو منطقية؟ و(ب) إن كان ذلك صحيحا، فما هي الإشـــارات التي يمكن وضعهـــا بين الأعداد الصحيحة؟ زائد وناقص، بشكل واضح، أحيانا الضرب، ونعم، القسمة. لكن هذه الإشـــارات محدودة. وبهذا فإن علاقة فاشلة تماما قد يعبر عنها على أنها الخسارة/ناقص والقسمة/الاختصار، بحيث يكون الإجمالي صفرا، بينما علاقة ناجحة تماما يمكن أن يتم تمثيلها بالإضافة والتضاعف. لكن ماذا عن معظم العلاقات؟ ألا يتطلب التعبير عنها رموزا غير محتملة منطقيا ولا يمكن حلها رياضيا؟

٦ - ٥ إذن كيف يمكنك التعبير عن تراكم يحتوي على الأعداد الصحيحة ط، أ١، أ٢، س، ف ؟

ط = س- ف + أ×١

أو أ٢ + ف + أ١× س = ط؟

٧ - ٥ أو هل تلك طريقة خاطئة في صياغة المسألة والتعبير عن التراكم؟ هل تطبيق المنطق على الظروف الإنســـانية في حد ذاته متناقض مع نفســـه؟ ماذا يحدث لسلسلة من البراهين حين تكـــون الروابط مصنوعة من معادن مختلفـــة، كل منها له درجة هشاشة منفصلة؟

٨ - ٥ أو هل كلمة «رابط» استعارة زائفة؟

٩ - ٥ لكـــن لو افترضنا أنها ليســـت خاطئة، إذا ما انكســـر رابط ما، فأين تقع المسؤولية لهذا الكسر؟ على الروابط مباشرة،

أم على الجانبين، أم على السلسلة بأكملها؟ لكن ماذا نعني بـ «السلسلة بأكملها»؟ إلى أي مدى تمتد حدود المسؤولية؟

٠ - ٦ أو يمكننا أن نحدد المسؤولية بشكل أضيق ونوزعها بشكل أكثر دقة. ولا نستخدم المعادلات والأعداد الصحيحة بل عوضا عن ذلك نعبرعن الأمور باستخدام اصطلاحات سردية تقليدية. وهكذا.

وهناك تتوقف النسخة المصورة لهذه النسخة من النسخة «وهكذا، مثلا، لو أن توني»: نهاية السطر، آخر الصفحة. لو لم أتعرف فورا على خط يد أدريان، لظننت أن هذا السطر الحابس للنفس جزء من أحد الأساليب الإيهامية المتقنة لفقته فيرونكا.

لكن لم أرغب في التفكير فيها - مادام في إمكاني أن أتفادى ذلك. بدلا من ذلك حاولت التركيز على أدريان وما كان يفعله. لا أدري كيف أعبر عن ذلك بشكل أفضل، لكن حين نظرت إلى تلك النسخة المصورة من الصفحة، لم أشعر بأني كنت أتفحص وثيقة تاريخية، فضلا عن أنها وثيقة تتطلب تفسيرا مسهبا. لا، شعرت كأن أدريان كان حاضرا معي في الغرفة مرة أخرى، بجانبي، يتنفس ويفكر.

كم مازال مثيرا للإعجاب. في بعض الأوقات حاولت أن أتخيل اليأس الذي يؤدي إلى الانتحار، حاولت أن أستحضر الظلام الذي يبدو فيه الموت فقط ثقبا صغيرا من الضوء، أي العكس تماما لظروف الحياة العادية. لكن في هذه الوثيقة - التي اعتقدت، بناء على هذه الصفحة الوحيدة، أنها تحتوي على تبرير أدريان العقلاني لانتحاره - كان الكاتب يستخدم الضوء

محاولا أن يصل إلى ضوء أعظم منه. هل لما أقول معنى؟

أنـــا على يقـــين أن علماء النفس وضعوا في مكان ما رســـما بيانيا يقيســـون به الذكاء بالنســـبة إلى العمر. ليس رسما بيانيا للحكمة، للبراغماتيـــة، للمهارة التنظيمية، للذكاء التكتيكي، تلك الأشـــياء التي، مـــع مرور الزمـــن، تبهم فهمنا للمســـألة. ولكنه رســـم بياني للذكاء الخالص. وتخميني أنه ســـيظهر أن معظمنا يصل إلى أعلى مســـتوى بين عمري السادســـة عشرة والخامسة والعشـــرين. إن ذلك الجزء من يوميات أدريان أرجعني إلى ذلك الزمـــن حين كان في ذلك العمر. حين كنا نتحدث ونتناقش، كان يبدو أنه خلق ليضع الأفكار في ترتيب صحيح، وكأن اســـتخدام عقله كان طبيعيا مثل اســـتخدام الرياضـــي لعضلاته. وكما أن الرياضيين يســـتقبلون الانتصار بمزيـــج غريب من الفخر وعدم التصديـــق والتواضع: هل فعلت ذلك؟ لكن كيف حققته؟ وحدي؟ أأشـــكر الآخرين؟ أم أن الله حققه لي؟ يأخذك أدريان في رحلة أفكاره كأنه نفســـه لا يصدق الســـهولة التي كان يسافر بها. لقد دخـــل حالة مـــن النعيم، لكنها حالة ليســـت مقصورة عليه. فقد جعلك تشعر بأنك كنت رفيقه في التفكير، حتى لو لم تقل شيئا. وكان غريبا جدا بالنســـبة إلي أن أشعر بهذا الشعور مرة أخرى، هذه الرفقة مع شـــخص ميت لكنه مازال أكثر ذكاء، رغم انقضاء تلك العقود الإضافية من حياتي.

ليس ذكاء خالصا فحســـب، بـــل ذكاء تطبيقي أيضا. وجدت نفســـي أقارن حياتي بحيـــاة أدريان. قدرته على فهم ودراســـة نفسه، القدرة على اتخاذ قرارات أخلاقية والتصرف بناء عليها،

الشـــجاعة الذهنية والجسدية لانتحاره. كانت العبارة «لقد أنهى حياته»، لكن أدريان أيضا ســيطر على حياتــه، قادها، احتواها بيديــه، ثم أفلتهــا من يديه. كم هـــي القلة القليلــة منا - نحن الباقين - التي تســتطيع أن تدعي أنها قامت بالشـــيء نفســـه؟ فنحن نتهادى في الحياة، نـــدع الحياة تحدث لنا، نبني تدريجيا مخزونا من الذكريات. هنا تأتي مسألة التراكم، لكن ليس بالمعنى الذي قصده أدريان، بل بالمعنى البسيط من الإضافة تلو الإضافة إلى الحياة. كما أشار الشاعر هناك فرق بين الإضافة والزيادة.

هل زادت حياتي، أم مجرد أضافت إلى نفســـها؟ كان ذلك هو السؤال الذي أثاره جزء من يوميات أدريان في نفسي. لقد كانت هنـــاك إضافة - وطرح - في حياتـــي، لكن كم من تضاعف كان هناك؟ وهذا أعطاني إحساسا بعدم الراحة، وعدم الاستقرار.

«وهكـــذا، مثلا، لـــو أن توني..». لتلك الكلمـــات معنى محلي نصي، خاص بزمن مضى منذ أربعين ســـنة، وقد اكتشـــف عند نقطـــة ما أنها تحتوي على، تؤدي إلى، توبيخ، انتقاد من صديقي القـــديم ذي البصيرة الصافيـــة والمتبصر بذاتـــه. لكن في هذه اللحظة سمعتها كإشارة عامة إلى حياتي بأكملها. «وهكذا، مثلا، لو أن توني..». بهذا المعنى فإن الكلمات بشكل عملي كانت كاملة بذاتها ولم تحتج لأن تتبعها جملة رئيســـية مفسرة. نعم بالطبع، لو أن توني رأى بشـــكل أوضح، تصرف بإصرار أكبر، التزم بقيم أخلاقية أكثر صدقا، لم يرض بنزعة سلبية للمسالمة كان يسميها في البداية ســـعادة ولاحقا رضا. لـــو أن توني لم يكن خائفا، لم يتكىء علـــى موافقة الآخرين للرضا عن الـــذات... وهكذا، من

خلال سلسلة من الفرضيات التي تقود إلى الفرضية الأخيرة: وهكذا، مثلا، لو أن توني لم يكن توني.

لكن توني كان، ولايزال، توني، رجلا عثر على الراحة في المثابرة. رسائل لشركات التأمين، إيميلات لفيرونكا. إن كنت تنوين أن تزعجيني، إذن سوف أزعجك ردا عليك. واصلت إرسال الإيميلات لها كل يوم بعد الآخر تقريبا، والآن بنبرات متنوعة، من النصائح المازحة كـ «افعلي الصواب، يا فتاة!»، إلى أسئلة حول جملة أدريان المجزوءة، إلى تساؤلات ليست صادقة تماما عن حياتها. أردتها أن تشعر بأني أنتظر اللحظة التي تضغط فيها على وارد بريدها، أردتها أن تعرف أنها حتى لو محت رسائلي فورا، فسوف أكون مدركا أن ذلك ما كانت تقوم به، وأني لن أكون مندهشا، أو متألما. وأني هناك، منتظر. «الحظ إلى جانبي، نعم إنه كذلك..». لم أشعر بأني كنت أتحرش بها، كنت فقط أسعى للحصول على ما هو لي. وبعد ذلك، في صبيحة أحد الأيام، حصلت على نتيجة.

«أنا قادمة إلى البلدة غدا، سألقاك في الساعة الثالثة عند منتصف جسر وبلي».

لم أتوقع ذلك مطلقا. اعتقدت أن كل شيء سيتم بتحفظ، إذ إن سبلها كانت المحامين والصمت. لعلها غيرت رأيها. أو ربما اندسست تحت جلدها وأزعجتها. فقد كنت أحاول ذلك، على أي حال.

جسر وبلي هو جسر المشاة الجديد الذي يقطع نهر التيمز ويربط كاتدرائية القديس بول بمعرض تيت المعاصر. حين افتتح

الجسـر في البداية، كان يهتز بعض الشـيء، إمـا من الرياح أو من أعداد الناس الذين يمشـون عليه، كان المعلقون البريطانيون حينها يسـخرون من المعماريين والمهندسين لقلة درايتهم بعملهم. كان رأيي أن الجسر جميل. كما أحببت الطريقة التي كان الجسر يتمايل بها. فقد اعتقدت أن علينا أن نتذكر بين الحين والآخر عدم الاسـتقرار تحت أقدامنا. ثم أصلحوه وتوقف عن التمايل، ولكن التصق الاسـم به، على الأقل فـي الوقت الحاضر. فكرت في اختيار فيرونكا لذلك الموقع. أيضا، إن كانت سـتظل تنتظر، ومن أي جانب من الجسر سوف تصل.

لكنها كانت قد وصلـت قبلي. عرفتها من بعد، إذ كان طولها ووقفتهـا مألوفين على الفور. أمر غريـب أن تبقى معك صورة وقفة شـخص ما. وفي حالتها كيـف يمكنني أن أعبر عن ذلك؟ هل يمكنـك أن تقف من دون صبر؟ لا أعني أنها كانت تقفز من قـدم إلى الأخرى، ولكن كان هنـاك توتر واضح دل على أنها لم ترغب في أن تكون هناك.

تأكدت من سـاعتي. وصلت في الوقت بالضبط. نظر أحدنا إلى الآخر.

قالت: «لقد فقدت شعرك».

«إن هـذا يحدث. على الأقل هذا يدل على أني لسـت مدمنا على الكحول».

«لم أقل إنك كذلك. سنجلس على أحد تلك المقاعد».

انطلقت من دون أن تنتظر إجابة مني. كانت تمشـي بسرعة، وكان علـي أن أركض خطوات قليلة لأصل إلى جانبها. لم أود أن

أمنحهـا تلك المتعة، لهذا تبعتها على بعد خطوات قليلة منها إلى مقعـد فارغ يواجه نهر التيمز. لم أسـتطع تحديد الاتجاه الذي يسير فيه التيار، وقد حركت سطح المياه رياح متعامدة مرنة. في الأعلى، كانت السماء رمادية اللون. كان هناك بعض السياح، أثار متزحلق على الماء جلبة حين عبر خلفنا.

«لم يعتقد الناس أنك مدمن على الكحول؟».

«إنهم لا يعتقدون ذلك».

«إذن، لم أثرت الموضوع؟».

«أنا لم أثره. قلت إني فقدت شـعري. ومـن الحقائق أنه إن أكثرت من الشرب، فإن هناك شيئا في الكحول يمنع شعرك من التساقط».

«هل ذلك صحيح؟».

«حسنا، هلا فكرت في رجل أصلع مدمن على الكحول؟».

«لدي أشياء أفضل أمضي وقتي فيها».

رمقتها وفكرت: لم تتغيري، لكني تغيرت. ومع ذلك، وبشـكل غريب، تلك التكتيكات الحوارية جعلتني أشـعر بالحنين. تقريبا. في الوقت نفسه، فكرت: وجهك يبدو قد نما عليه الشعر قليلا. كانت ترتدي تنورة صوفية عمليـة ومعطفا واقيا من المطر باليا أزرق اللون، وشعرها، حتى مع هبوب النسيم القادم من النهر، كان مهملا. كان بالطول نفسه الذي كان عليه قبل أربعين سنة، ولكن يتخلله البياض بكثافة، أو بالأحرى، كان أبيض يتخلله اللون البني الأصلي. كانت مارغريت تقول إن النسـاء غالبا ما يرتكبن خطأ حين يحافظن على تسريحة الشعر نفسها التي كن يتخذنها حين

كن في أقصى جاذبيتهن. ثم هن يحافظن على التسريحة نفسها بعد فترة طويلة من فقدانها رونقها، كل ذلك بسبب خوفهن من قصة الشعر الكبرى. هذا بالتأكيد الحال بالنسبة إلى فيرونكا. أو ربما فقط أنها لم تبال.

قالت: «إذن؟».

«إذن»، كررت قولها.

«لقد طلبت أن نلتقي».

«صحيح؟».

«هل تقصد أنك لم تطلب مني؟».

«إن كنت تقولين كذلك، فلا بد أني فعلت ذلك».

«حسنا، نعم أم لا؟». سألتني وهي تنهض على قدميها وتقف، نعم، وقد نفد صبرها.

لم أرد وقد تعمدت ذلك. لم أقترح عليها أن تجلس، ولم أحاول النهوض. يمكن أن تغادر إن رغبت في ذلك، وسوف تغادر فعلا، ولهذا لم تكن هناك فائدة من محاولة منعها. كانت تحدق في الماء. كان هناك ثلاث شامات على جانب عنقها، هل تذكرتها الآن أم لا؟ وعلى كل شامة الآن شعرة طويلة تنمو منها، وقد كشف الضوء عن تلك الخيوط الشعرية.

حسنا إذن، لا داعي للكلام العادي، للتاريخ، للحنين. مباشرة إلى الأمور الجدية.

«هل في نيتك أن تسلميني يوميات أدريان؟».

«لا أستطيع» أجابت من دون النظر إلي.

«لم لا؟».

«لقد أحرقتها».

أولا جريمـة السـرقة، ثم جريمة الحرق. فكـرت، باندفاعة غاضبة. لكن قلت لنفسـي أن أسـتمر في معاملتها مثل شـركة التأمين. وهكذا سألتها بكل ما استطعت من الحيادية:

«ما السبب؟».

ارتعش خدها، ولكن لم أستطع أن أميز إن كانت تلك ابتسامة أم جفلة.

«لا يجدر بالناس قراءة يوميات أناس آخرين».

«لا بـد أن أمك قد قرأتها. وأنت كذلك، بحيث قررت بشـأن الصفحة التي ترسلينها لي». لم يكن هناك رد. حاول شيئا آخر. «على فكرة، كيف تنتهي تلك الجملة؟ تعرفينها، وهكذا، مثلا، لو أن توني...؟».

هـز للكتفين وعبوس. «لا يجدر بالنـاس قراءة يوميات أناس آخرين»، كررت قولها. «لكن يمكنك قراءة هذا إن أحببت».

أخرجت شـيئا من جيـب معطفها المطـري، ناولتنـي إياه، استدارت، وذهبت.

حين وصلـت البيت، تأكدت مـن الإيميلات التي أرسـلتها، وبالطبع، لم أطلب لقاءها قط. حسـنا، ليس بكلمات كثيرة، على أي حال.

أتذكـر ردة فعلـي الأولى حين رأيت عبارة «ثمـن الدم» على شاشـتي. قلت لنفسـي: لكن لم يقتل أحد. كنت حينها أفكر في فيرونكا وفي. لم أفكر في أدريان.

شـيء آخر أدركته: كان هناك خطأ ما، أو شـذوذ إحصائي،

في نظرية مارغريت حول النساء شديدات الوضوح والنساء الغامضات، أو بالأحرى، في الجزء الثاني منها عن الرجال الذين ينجذبون إلى نوع واحد دون الآخر. فقد كنت منجذبا لكل من فيرونكا ومارغريت.

أتذكر زمنا في أواخر مرحلة المراهقة حين كان عقلي يثمل بصور من حب المغامرة. هذا ما سوف يكون عليه الحال حين أكبر. سوف أذهب هناك، وأقوم بهذا، وأكتشف ذاك، وأحب هذه، ثم هذه، وهذه، وهذه. سوف أعيش كما يعيش، وعاش، الناس في الروايات. لست متأكدا أي روايات منها، لكن فقط ذلك الشغف، والخطر، والنشوة، واليأس (لكن ثم المزيد من النشوة) كانت كلها حاضرة. غير أن... من قائل ذلك عن «ضآلة الحياة التي يبالغ بها الفن؟». كانت هناك فترة في أواخر العشرينات من عمري حين كنت أعترف أن حبي للمغامرة فتر منذ زمن. لن أقوم بتلك الأشياء التي حلمت بالقيام بها في مراهقتي. بدلا من ذلك جززت مرجتي، وقضيت إجازات وعشت حياتي.

لكن الزمن... كيف يعلمنا الزمن في البداية ثم يربكنا. كنا نظن أننا ناضجون في الوقت الذي كنا فيه آمنين فقط. تصورنا أننا نتحلى بالمسؤولية في الوقت الذي كنا فيه جبناء فقط. ما أسميناه واقعية تبين أنه ما هو إلا طريقة لتفادي الأشياء بدلا من مواجهتها. الزمن... امنحنا زمنا كافيا وستبدو جميع قراراتنا المدروسة بعناية متهادية، وسيبدو يقيننا نزوات.

لم أفتح المغلف الذي أعطتني إياه فيرونكا لمدة يوم ونصف اليوم. انتظرت لأني كنت أعرف أنها كانت تتوقع مني ألا أنتظر،

وأن أضع إبهامي على لســان المغلف حالما تغيب عن النظر. لكن كنت أعرف أن المغلف على الأغلب لن يحتوي على ما طلبته: مثلا، مفتاح خزانة أمتعة حيث سأعثر على يوميات أدريان. في الوقت نفســه لم أقتنع بكلماتها المتزمتة حول عدم قراءة يوميات أناس آخرين. فكرت أنها قادرة علــى ارتكاب جريمة الحرق لتعاقبني على الإســاءات والإخفاقات القديمة، لكن ليس دفاعا عن مبدأ ما وضع بعجلة حول السلوك السديد.

حيرني أنها هي التي اقترحت لقاءنا. فلم لم تستخدم البريد الممتــاز، وبهذا تتفــادى مواجهة من الواضح أنهــا كانت بغيضة بالنســبة إليها؟ لم وجها لوجه؟ لأنها كانــت فضولية لتنظر إلي مــرة أخرى، حتى لــو جعلها ذلك ترتعد؟ أشــك في ذلك جدا. اســتعرضت الدقائق العشــر التي أمضيناها معا، الموقع، تغيير الموقع، وتلهفها لأن نغادر الموقعين، ما قيل وما لم يقل. في النهاية وضعــت نظرية. إن لم تكن تريد لقائي للقيام بما قامت به، وهو إعطائــي المغلف، إذن فهي احتاجت أن تلقانــي لتقول ما قالته، وهو أنها قامت بحرق يوميات أدريان. ولم كان عليها أن تعبر عن ذلــك بكلمات بالقرب من نهر التيمز؟ لأن ما قالته قابل للإنكار. فهــي لم ترد وثيقة تتمثل في نســخة مطبوعة من الإيميل. فإن كانت تســتطيع أن تؤكد أني أنا الذي طلبت اللقاء، فلن يكون من الصعب عليها أن تنكر أنها اعترفت بجريمة الحرق.

بعد أن توصلت لذلك التفســير الافتراضــي، انتظرت حتى المســاء، وتناولت عشائي، وصببت كأســا إضافية من الشراب، وجلســت ومعي المغلف. لم يكن مكتوبا عليه أي اســم، لعل ذلك

دليل آخر على العزم على الإنكار؟ بالطبع، لم أعطه إياه. ولم ألتق به أيضا. إنه مجرد متحرش عبر البريد الإلكتروني، مهووس، أصلع يستخدم التواصل الإلكتروني.

استطعت أن أعرف من الشريط الرمادي الضارب إلى السواد المحيط بحافة الصفحة الأولى أنها نسخة مصورة أخرى؟ ما مشكلتها؟ ألم تتعامل قط مع نسخ أصلية؟ ثم لاحظت التاريخ في الأعلى، وخط اليد، إنه خط يدي، كما هو عليه، على مدى هذه السنوات كلها. «العزيز أدريان»، هكذا بدأت الرسالة. قرأتها كلها.

كم مرة نحكي قصة حياتنا؟ كم مرة نتكيف، نجمل، نقوم بتنازلات حكيمة؟ كلما طالت الحياة، قل عدد هؤلاء من حولنا الذين يفندون روايتنا، يذكرون أن حياتنا ليست فعلا حياتنا، بل مجرد القصة التي حكيناها عن حياتنا. حكيناها لآخرين، لكن، بشكل رئيسي، لأنفسنا.

العزيز أدريان، أو، بالأحرى، العزيزان أدريان وفيرونكا (مرحبا أيتها الحقيرة، وأرحب بك في هذه الرسالة).

حسنا، أنتما بالتأكيد يستحق أحدكما الآخر، وأتمنى لكما سعادة كبيرة. آمل أن تغرما ببعضكما بحيث يصبح الدمار المشترك دائما. آمل أن تندما على اليوم الذي عرفتكما فيه على بعض. وآمل حين تنفصلان، كما سيحدث حتما - أعطيكما ستة أشهر، سيمددها كبرياؤكما المشترك إلى سنة، وذلك أفضل لأنه سيزيد من دماركما، كما أقول لكما - أن تتبقى لكما حياة من المرارة تسمم علاقاتكما المستقبلية. يأمل جزء مني أن تنجبا

طفـلا، لأني أؤمن بقوة بانتقـام الزمن، بحيث ينتقل إلى الجيل التالـي والذي يليه. انظرا الفن العظيـم. لكن الانتقام يجب أن يقـع على مـن يسـتحقونه، أي عليكمـا الاثنين (وأنتما لسـتما جـزءا من الفن العظيم، بل خربشـات كرتونيـة). ولهذا لا أتمنى لكما ذلك. سـوف يكون من غيـر الإنصاف أن يبتلى جنين بريء بإمـكان اكتشـافه أنـه كان ثمرة مـن صلبيكما، مـع اعتذاري عن لغتي الشعرية.

ومـع هذا، يكفـي ما قيل من مجاملات. لـدي بعض الكلمات الدقيقة لأقولها لكل منكما.

أدريان: صرت تعرف الآن أنها غاوية، بالطبع - رغم أني أتوقع أنك قلت لنفسـك إنها واقعة في صراع مع مبادئها، بحيث تقوم كونك فيلسوفا بتوظيف خلاياك الرمادية لمساعدتها في التغلب علـى هـذا الصراع. إن لم تكن قد سـمحت لك بعد اسـتمر حتى النهايـة، وأقتـرح أن تنفصـل عنهـا، وسـتأتي إلى غرفتـك. لكن الإغواء استعارة أيضا: فهي شخص سوف يستغل ذاتك الداخلية بينمـا هـي تخفي عنك ذاتها. أترك التشـخيص الدقيق لطبيب نفسي - وهو تشخيص سيختلف وفق أيام الأسبوع - وأشير فقط إلى عجزها عن تخيل مشاعر أي شخص آخر وحياته العاطفية. حتى أمها حذرتني منها. لو كنت مكانك، لاستشرت أمها، اسألها عـن الخلـل الذي حدث منذ زمن مضـى. بالطبع، الأجدر بك أن تقـوم بذلك مـن دون علم فيرونكا، لأنه يا لها من فتاة مهووسـة بالسـيطرة. آه، عليك أن تدرك أنها أيضا فتاة متعجرفة ارتبطت بك فقط لأنك ستكون قريبا أحد خريجي جامعة كيمبردج. تذكر

كم احتقرت الأخ جاك وأصدقاءه الأنيقين. هل هذا الشخص الذي تود أن ترتبط به؟ لكن لا تنس: امنحها زمنا، وستتعالى عليك كما تعالت علي.

فيرونكا: ممتعة، تلك الرسالة المشتركة. خبثك ممزوج مع تزمته. يا له من زواج مواهب. مثل إحساسك بالتعالي الاجتماعي وإحساسه بالتعالي الفكري. لكن لا تظني أنك تستطيعين التغلب على ذكاء أدريان، كما تغلبت - لبعض الوقت - على ذكائي. إني أفهم أساليبك: اعزليه، افصليه عن أصدقائه، اجعليه يعتمد عليك، إلخ، إلخ. ذلك قد ينجح على المدى القريب. لكن على المدى البعيد؟ إن المسألة تتعلق فقط بقدرتك على أن تحملي قبل أن يكتشف أنك مملة. وحتى إن تغلبت عليه، فتوقعي حياة يتم فيها تصحيح لمنطقك، وتحذلق على طاولة الإفطار، وتثاؤبات مكبوتة من تعاليك وتأففك. لا أستطيع أن أفعل لك شيئا الآن، لكن الزمن يستطيع. سيبدي الزمن. ودائما ما يبدي.

تحيات الموسم لكما، وأرجو أن يسقط المطر الحمضي على رأسيكما المشتركين والمباركين.

توني

قرأت الرسالة عدة مرات. لا أستطيع أبدا أن أنكر هوية مؤلفها أو قباحتها. كل ما أستطيع أن أدفع به هو أني كنت مؤلفها في ذلك الحين، لكن لست مؤلفها الآن. بالتأكيد، لم أعرف ذلك الجزء من نفسي الذي جاءت منه الرسالة. ولكن لعل ذلك ببساطة فيه المزيد من الخداع الذاتي.

في البداية، فكرت في نفسي بشكل رئيسي، وكيف - ما -

كنـت: تافها، غيورا، خبيثا. أيضـا فكرت في محاولتي للتصغير من علاقتهما. على الأقل، لقد فشـلت فـي تلك المحاولة، إذ إن أم فيرونكا أخبرتني بأن الأشـهر الأخيرة من حياة أدريان كانت سـعيدة. ولا يعني ذلك أني تخلصت من المسـؤولية. لقد عادت ذاتي الشابة لتصدم ذاتي الكبيرة بما كانت عليه تلك الذات، وما كانت، أو ما كانت أحيانا، تلك الذات قادرة على أن تكون. وأخيرا فقط كنت أتحدث عن كيف أن الشـهود على حياتنا يتناقصون، ومعهـم يتناقص التوثيق اللازم. والآن لدي توثيق غير مرحب به حول ما كنت، لو كانت تلـك هي الوثيقة الوحيدة التي أخرجتها فيرونكا للنور.

ثم فكـرت فيها. ليس بما تكون قد شـعرت بـه حين قرأت رسالتي أول مرة، سوف أعود لتلك النقطة، بل لم سلمتني إياها. بالطبع، كانت تود أن تشـير إلى مـدى حقارتي. ولكن كان الأمر أكثر من ذلك، كما استنتجت. آخذين بعين الاعتبار علاقة الجفاء الحالية بيننا، فقد كانت أيضا حيلة تكتيكية، تحذير. إن حاولت أن أثير ضجة قانونية حول اليوميات، فإن تلك الرسـالة ستكون جزءا من دفاعها. سأكون شاهدا على شخصيتي.

ثم فكرت في أدريان. صديقي القديم الذي قتل نفسه. وكانت هذه الرسـالة آخر ما وصله مني. تشـهير بشخصيته ومحاولة لتدميـر أول علاقة حب فـي حياته. وحين كتبها في ذلك الزمن يكشف أني قللت من قيمة الأمور، أو بالأحرى حسبتها خطأ: إن الزمن لم يكن يدينهم، بل يدينني.

وأخيـرا تذكرت البطاقة البريدية التي أرسـلتها لأدريان كرد

مؤجل لرسالته. تلك الرسالة المتصنعة للهدوء عن أن الأمور على ما يرام، يا صديقي القديم. كانت البطاقة لجسر كليفتون المعلق. كان عدد من الناس في كل عام يقفزون منه إلى حتفهم.

في اليوم التالي، حين كنت صاحيا، فكرت مرة أخرى في ثلاثتنا وفي مفارقات الزمن العديدة. مثلا، حين نكون صغارا وحساسين، نكون أيضا أشد إيلاما، بينما حين يأخذ الدم في التباطؤ، حين نشعر بحدة أقل، حين نكون أكثر تحصنا وقد تعلمنا كيف نتحمل الألم، فإننا نسير بخطى حذرة. في هذه الأيام قد أندس تحت جلد فيرونكا، لكن لن أقدم على سلخ جلدها عنها قطعة تلو الأخرى.

حين أعود إلى تلك اللحظة، لم يكونا قاسيين حين نبهاني إلى علاقتهما. ولكن كان توقيتها، وحقيقة أن فيرونكا بدت كأنها وراء الفكرة كلها. لم استجبت بطريقة انفجارية؟ كبرياء مجروح، توتر ما قبل الامتحانات، العزلة؟ أعذار، جميعها كذلك. لا، لم يكن الخزي ما شعرت به، أو الذنب، بل شيء أكثر ندرة في حياتي وأقوى منهما: الندم. شعور أكثر تعقيدا، متخثر وبدائي. شعور سمته الرئيسية أنه لا يمكن فعل شيء حياله، زمن طويل جدا مضى ودمار كبير جدا وقع، إلى درجة لا يمكن معها إصلاحه. حتى لو أني، بعد أربعين سنة، أرسلت لها إيميلا معتذرا فيه عن رسالتي.

ثم فكرت أكثر في أدريان. منذ البداية، كان دائما يرى بجلاء أكثر منا. بينما كنا نغرق في كآبة المراهقة، متخيلين أن سخطنا الروتيني هو استجابة مبدعة للظرف الإنساني، كان أدريان ينظر

إلى حد أبعد أمامه وبشــكل أوسع حوله. وأحس بالحياة بوضوح أكثــر منا أيضا حتى - ربما خاصة - حين أقدم على القرار بأن الحياة لا تستحق أن نعيشها. بالمقارنة معه، كنت دائما متخبطا، عاجـزا عن تعلم الكثير من الدروس القليلة التي تقدمها الحياة. باســتخدام اصطلاحاتي، فقد اســتقررت على حقائق الحياة، وخضعــت لضرورياتهــا: إن كان هذا، إذن فــذاك، وهكذا مرت السنون. وباستخدام اصطلاحات أدريان، فقد يئست من الحياة، يئســت من تفحصها، وتقبلتها كمــا هي. ولهذا، لأول مرة، بدأت أشــعر بندم أكثر شمولية - شــعور بين الشفقة على الذات وكره الــذات - على حياتــي بأكملها. كلها. فقدت أصدقاء شــبابي. فقــدت حب زوجتــي. تخليت عن طموحاتي التــي فكرت فيها. أردت مــن الحياة ألا تزعجني كثيرا، ونجحت في ذلك، وكم كان ذلك مثيرا للشفقة.

متوســطا، هذا ما كنت، منذ أن تركت المدرسة. متوسطا في الجامعة، متوسطا في العمل، متوسطا في الصداقة، الإخلاص، الحــب. كان هناك مســح إحصائي للســائقين البريطانيين قبل عدة ســنوات أظهر أن خمسا وتســعين في المائة من المشاركين في المســح يعتقدون أنهم «أفضل من السائقين المتوسطين». وفق قانون المتوســطين، إن معظمنا ملتزم بأن نكون متوســطين. ولا يعني أن هناك عزاء في ذلك. الكلمة تردد صداها. متوسطا في الحياة، متوســطا في الحقيقة، متوسطا أخلاقيا. كانت أول ردة فعل لفيرونكا حين رأتني مرة أخرى أن أشــارت إلى أني فقدت شعري. كان ذلك أقل ما في الأمر.

في الإيميل الذي أرسلته ردا على اعتذاري قالت: «لازلت لم تفهم، أليس كذلك؟ لكن لن تفهم أبدا». لم أستطع أن أتذمر. حتى إن وجدت نفسي أتمنى بشكل مثير للشفقة لو أنها استخدمت اسمي في إحدى جملتيها.

تعجبت كيف استحوذت فيرونكا على رسالتي. هل ترك أدريان لها كل ممتلكاته في وصيته؟ لم أعرف حتى إن كان قد ترك وصية. لعله احتفظ بها داخل يومياته، ووجدتها هناك. لا، لم أكن أفكر بوضوح. لو كان تركها هناك، لرأتها السيدة فورد، وكانت بالتأكيد لن تترك لي خمسمائة جنيه.

تساءلت: لم اهتمت فيرونكا بأن ترد على إيميلي؟ هذا لو سلمنا أنها تظاهرت بأنها تحتقرني تماما. حسنا، لعلها لم تتظاهر.

تساءلت إن كانت فيرونكا قد عاقبت الأخ جاك لأنه أعطاني عنوان بريدها الإلكتروني.

تساءلت إن كانت كلماتها، بعد كل تلك السنوات: «لا يبدو الأمر صوابا» كانت ببساطة تعبير عن الأدب. لعلها لم ترغب في أن تتقرب مني لأنها قررت أن التواصل الجسدي الذي قمنا به حينها لم يكن ممتعا بدرجة كافية. تساءلت إن كنت أخرق، متغطرسا، أنانيا. ليس إن كنت، بل كيف كنت.

جلست مارغريت واستمعت أثناء تناولنا الكيشي والسلطة، ثم البانا كوتا مع حساء الفواكه، بينما كنت أصف تواصلي مع جاك، والصفحة المجزوءة من يوميات أدريان، واللقاء على الجسر ومحتويات رسالتي وشعوري بالندم. أرجعت فنجان القهوة إلى

الصحن محدثة قرقعة خفيفة.

«أنت لست مغرما بكعكة الفواكه».

«لا، لا أعتقد ذلك».

«توني، ذلك لم يكن سؤالا. كان جملة».

نظرت إليها بحنان. كانت تعرفني أفضل من أي شخص آخر في العالم. ومازالت ترغب في تناول الغداء معي. وتدعني أسهب في الحديث عن نفسي. ابتسمت لها بطريقة هي أيضا من دون شك تعرفها بشكل جيد جدا.

قلت: «في أحد هذه الأيام سوف أفاجئك».

«مازلت تفاجئني. لقد فعلت اليوم».

«نعم، لكن أريد أن أفاجئك بطريقة تجعلك تفكرين في بشكل أفضل وليس أسوأ».

«لا أفكر فيك بشكل أسوأ. لا أفكر حتى في كعكة الفواكة بشكل أسوأ، برغم أني أعترف أن تقديري لها كان دائما دون مستوى سطح البحر».

مارغريت لا تلوح بانتصارها، وعرفت أيضا أنه ليس عليها أن تشير إلى أني تجاهلت نصيحتها. أظن أنها تحب جدا أن تكون الإنسانة المتعاطفة، كما تحب جدا أن تذكر أن سبب سعادتها هو أنها لم تعد متزوجة مني. لا أعني ذلك بطريقة لئيمة. أعتقد فقط أن هذا هو الحال.

«هل يمكن أن أسألك سؤالا؟».

أجابت: «أنت دائما ما تفعل ذلك».

«هل تركتني بسببي؟».

«لا»، قالت. «لقد تركتك بسببنا».

أنــا وســوزي علاقتنا طيبة، كمــا أقول دائمــا. وهذا يكفي كجملة سوف أقسم عليها بســعادة في المحكمة. إنها في الثالثة والثلاثين، ربما الرابعة والثلاثين. نعم، الرابعة والثلاثين. لم نقم بأي نشاط معا منذ اليوم الذي جلست فيه في الصف الأول من غرفة البلدية المكسوة بخشب البلوط وقمت بدوري كشاهد على زواجها. أتذكر وأنا أفكر حينها أني توقفت عن مســؤوليتي، أو، بشكل أدق، أوقفت نفســي عن المسؤولية. قمت بواجبي، طفلتي الوحيــدة توجهت بأمان إلى الملجأ المؤقت للــزواج. والآن كل ما عليــك أن تقوم به هــو ألا تصاب بألزهايمــر، وتتذكر أن تترك لهــا المال الذي تمتلكه. ويمكنك محاولة أن تقوم بعمل أفضل من والديك بحيث تموت حين مازال في اســتطاعتها استخدام هذا المال. تلك ستكون البداية.

لو أني ومارغريت بقينا متزوجين، فســأجرؤ على القول إنني سأســتطيع أن أكون جدا شغوفا. من غير المدهش أن مارغريت كانت مفيدة. لم ترغب ســوزي في تــرك الأطفال معي لأنها لم تعتقد أني قادر على ذلك، بالرغم من كل الحفاضات التي غيرتها، وأمور أخرى. «يمكنك أن تصطحب لوكاس لمشــاهدة كرة القدم حــين يكبر»، قالت لي ذات مــرة. آه، الجد ذو العينين الدامعتين يقف على شــرفات الملعب يقود الصبي ليعلمه أسرار كرة القدم: كيف تمقت الناس الذين يرتــدون قمصانا بألوان مختلفة، كيف تتظاهــر بالإصابة، كيــف تقذف بمخاطك علــى الملعب، انظر، يا بني، اضغط بشــدة على أحد منخريــك لتغلقه، واقذف المادة

الخضراء من المنخر الآخر. كيف تكون مغرورا وأجرك متضخما وتخلف أفضل سني حياتك وراءك قبل حتى أن تدرك معنى الحياة. أوه، نعم إني أتشوق لأصطحب لوكاس إلى كرة القدم.

لكن سوزي لا تلاحظ أني لا أحب اللعبة، أو لا أحب ما انتهت إليه. إنها عملية بشأن العواطف، هذه هي سوزي. تطبعت بطبع أمها. ولهذا فإن مشاعري كما هي عليه لا تهمها. تفضل أن تفترض أن لدي أحاسيس معينة وتتصرف بناء على هذا الافتراض. عند حد ما هي تلومني على الطلاق. مثل: بما أن ذلك من جراء أفعال أمها، فمن الواضح أن ذلك خطأ أبيها.

هل تتطور الشخصية مع الزمن؟ في الروايات، بالطبع تتغير، وإلا لن تكون هناك قصة. لكن في الحياة؟ أتساءل أحيانا. تتغير مواقفنا وآراؤنا، نطور عادات وأفعالا غريبة جديدة، لكن هذا شيء مختلف، أكثر منه زخرفا. لعل الشخصية تشبه الذكاء، بيد أن الشخصية تصل أوجها متأخرة قليلا، لنقل بين العشرينات والثلاثينات. وبعد ذلك، نتمسك فقط بما حصلنا عليه. نعتمد على أنفسنا. إن كان الأمر كذلك، فإنه يفسر الكثير من الحيوات، أليس كذلك؟ وأيضا - إن لم تكن الكلمة مهيبة أكثر مما يجب - يفسر مأساتنا.

«مسألة التراكم»، هذا ما كتبه أدريان. تضع مالا على حصان ما، يربح الحصان، فتذهب أرباحك إلى الحصان التالي في السباق التالي، وهكذا. تتراكم أرباحك. لكن هل تتراكم خسائرك؟ ليس على مضمار السباق، هناك تخسر فقط رهانك الأصلي. لكن في الحياة؟ ربما هنا تنطبق قواعد مختلفة. أنت

تراهن على علاقة ما، تفشـــل، تنتقل إلى العلاقة التالية، تفشل أيضا، وربما ما تخســـره لا يكون ببساطة اثنين ناقص الإجمالي، بـــل تضاعف ما راهنت به. هذا هو الحـــال مع الحياة، على أي حال. الحياة ليســت مجرد إضافة وطرح. هنـــاك أيضا تراكم، تضاعف، للخسارة، للفشل.

يشـــير ذلـــك الجزء مـــن يوميات أدريـــان أيضا إلـــى قضية المســـؤولية، وإن كانت هناك سلســـلة منهـــا، أو أن نأخذ المفهوم بشـــكل أضيق. أنا تماما مع أن نأخذه بشـــكل أضيق. آســـف، لا، لا يمكنك أن تلقـــي باللوم على والديك الميتين، أو على وجود إخوان أو أخوات لك، أو على عدم وجودهم، أو على جيناتك، أو علـــى المجتمع، أو على أي كان، ليس فـــي الظروف العادية. ابدأ بفكرة أن مســـؤوليتك هي المســـؤولية الوحيدة ما لم يكن هناك دليل قوي على العكس من ذلك. كان أدريان أشد ذكاء مني - فقد استخدم المنطق بينما أستخدم أنا البديهة العامة - لكن توصلنا، كما أعتقد، بشكل أو بآخر إلى النتيجة نفسها.

هذا لا يعني أني أســـتطيع فهم كل مـــا كتبه. حدقت في تلك المعادلات في يومياته من دون أن أستنير. لكن لم أكن في حياتي جيدا بالرياضيات.

لا أحســـد أدريان على موته، بل أحســـده على وضوح حياته. ليس فقط لأنه رأى، وفكر، وشـــعر، وتصـــرف بوضوح أكثر من بقيتنا، ولكن أيضا بســـبب الوقت الذي مـــات فيه. لا أعني هنا أيـــا من هراء الحرب العالمية الأولى: «اقطف زهرة الشـــباب» - ســـطر كان يتشدق به مدير مدرستنا في الوقت الذي انتحر فيه

روبسون» - هم لن يكبروا ليصيروا شيوخا طاعنين كما صرنا نحن الباقين شيوخا طاعنين». معظم بقيتنا لم يمانعوا في أن يكبروا ويصيروا شيوخا. إن ذلك دائما أفضل من البديل في كتابي. لا، ما أعنيه هو التالي: حين تكون في العشرينات، حتى إن كنت مشوشا وغير متأكد من أهدافك وغاياتك، فإن لديك حسا قويا بمعنى الحياة نفسها، وبماهيتك في الحياة وبما يمكن أن تصير عليه. فيما بعد... فيما بعد هناك المزيد من عدم اليقين، المزيد من التداخل، المزيد من التراجع، المزيد من الذكريات الزائفة. في الماضي، يمكنك أن تتذكر حياتك القصيرة بأكملها. فيما بعد، تصبح الذاكرة شيئا من الخرق والرقع. فهي إلى حد ما تشبه الصندوق الأسود في الطائرات الذي يسجل ما يحدث في حالة التحطم. إن لم يحدث شيء خطأ، فإن الشريط يمحو نفسه. وهكذا إن تحطمت، يكون واضحا لم حدث ذلك، إن لم تتحطم فإن منطق رحلتك يصبح أقل وضوحا. أو، سوف أعبر عنها بطريقة أخرى. ذات مرة قال أحدهم إن الأزمان المفضلة لديه في التاريخ هي تلك التي تشهد انهيارا لأن ذلك يعني أن شيئا جديدا في طور الولادة. هل هناك منطق في هذه المقولة إن طبقناها على حياتنا الفردية؟ أن تموت عندما يولد شيء جديد، حتى إن كان ذلك الشيء الجديد هو أنفسنا ذاتها؟ لأنه كما أن التغيير السياسي والتاريخي سوف يكون مخيبا للآمال آجلا أو عاجلا، فإن الحال كذلك بالنسبة إلى البلوغ. وكذلك الحال بالنسبة إلى الحياة. أحيانا أعتقد أن الهدف من الحياة هو أن تصالحنا مع خسارتها في النهاية عن طريق إنهاكنا، أن تثبت

لنا، مهما استغرق ذلك من وقت، أن الحياة ليست ما توقعناه في البداية.

تخيل أن شخصا ما، في وقت متأخر من الليل، ثمل بعض الشيء، ويكتب رسالة إلى حبيبة قديمة. يعنون المغلف، يضع طابعا عليه، يعثر على معطفه، يمشي إلى صندوق البريد، يدفع بالرسالة إلى داخله، يمشي إلى البيت وينام. على الأرجح أنه لن يقوم بالجزء الأخير كله، أليس كذلك؟ فهو سيترك الرسالة ليضعها في صندوق البريد في الصباح. ثم، ومن المحتمل جدا، سيفكر فيما كتبه مرة أخرى. ولهذا يمكن قول الكثير عن الإيميل، عن عفويته، عن فوريته، عن صدق المشاعر الذي يحتويه، حتى عن حماقاته. تفكيري - إن لم تكن تلك العبارة مهيبة أكثر مما يجب - كان كالتالي: لم أقبل ما قالته مارغريت؟ فهي حتى لم تكن هناك، ويمكن أن تبدي تحيزا. لهذا فقد أرسلت إيميلا إلى فيرونكا. عنونته بـ «سؤال»، وسألتها: «هل تعتقدين أني كنت أحبك في ذلك الحين؟». وقعت الرسالة بأحرف اسمي الأولى وضغطت على زر الإرسال قبل أن أغير رأيي.

آخر ما توقعته ردا في الصباح التالي. هذه المرة لم تمح عنوان موضوعي. كان ردها: «إن كان لا بد أن تسأل السؤال، إذن فالإجابة هي لا. ف».

لقد وجدت الإجابة عادية، وبالتأكيد مشجعة، مما قد يكشف شيئا ما عن حالتي الذهنية.

كانت ردة فعلي أن هاتفت مارغريت وأخبرتها عما دار بيننا، الأمر الذي يكشف شيئا آخر. خيم الصمت، ثم قالت زوجتي

السابقة: «توني، أنت الآن بمفردك».

يمكنــك أن تعبر عنها بطريقة أخــرى، بالطبع، يمكنك دائما فعل ذلك. لهذا، مثلا، هناك مســألة الازدراء، واســتجابتنا له. غمز لي الأخ جاك بغطرســة، وبعد أربعين ســنة استخدمت ما أملك من سحر - لا، دعنا ألا نبالـ غ: استخدمـت أدبـا زائفـا - لا تنتزع معلومات منه. ومن ثم مباشرة خنته.. ازدرائي له كان لقاء ازدرائه لي. حتى لو أن، كما أعترف الآن، ما كان بالفعل يشــعر به نحوي حينها قد يكون مجرد شــعور مسل بعدم الاكتراث. ها قد جاء حبيب أختي الأخير. حســنا، كان هناك واحد قبله، ومن دون شك سيكون واحد آخر بعده قريبا. لا داعي لأن أدرس تلك العينة العابرة بعمق. لكن أنا - أنا - شعرت بذلك كأنه ازدراء في ذلك الحين، وتذكرته بهذا الشكل وقابلت الشعور بمثله.

ولعلنــي مع فيرونكا كنت أحاول القيام بشــيء أكثر من ذلك، ليــس أن أقابــل ازدراءها، ولكن أن أتغلب عليــه. يمكن أن ترى الإغــراء في ذلــك. لأن إعادة قراءتي لرســالتي، واستشــعاري قســوتها وعدوانيتها أصابني بصدمة عميقة في الصميم. إن لم تكن تشــعر بالازدراء نحوي قبل ذلك، فهي لزاما شــعرت بذلك بعــد أن أراهــا أدريان كلماتــي. ولزاما أيضا أنهــا حملت هذا الازدراء معها على مدى السنين، واستخدمته لتبرر حجبها، حتى تدميرها، ليوميات أدريان.

كنت أقول، بثقة إن الســمة الرئيســية للندم أنك لا تستطيع القيام بشيء حياله: أن الوقت قد فات على الاعتذار أو الإصلاح. لكــن ماذا لو كنت مخطئا؟ ماذا لو بطريقة ما يمكن جعله يتدفق

إلــى الوراء، يمكن تحويله إلى ذنب بســيط، ثم الاعتذار عنه، ثم يغفر؟ ماذا لو يمكنك أن تثبت أنك لســت ذاك الشخص السيئ الذي اعتقدته، وأنها مستعدة لأن تقبل دليلك؟

أو لعــل دافعي جــاء من الاتجــاه المعاكس تمامــا، ولم يكن يتعلق بالماضي بل بالمسـتقبل. مثل معظــم الناس، لدي خرافات مرتبطة بالســفر. قد نعلم أن الطيــران إحصائيا أكثر أمنا من المشــي إلى محل على ناصية الطريق. برغم ذلك، قبل أن أسافر أقوم بأشياء مثل دفع الفواتير والرد على كل المراسلات ومهاتفة شخص قريب.

«سوزي، سأسافر غدا».

«نعم، أعرف يا أبي. لقد أخبرتني».

«هل أخبرتك؟».

«نعم».

«حسنا، أردت أن أودعك فقط».

«آسف، أبي، كان الأولاد يثيرون ضجة. ماذا قلت؟».

«أوه، لا شيء، أبلغيهم حبي».

إنــك تقوم بذلك من أجلك، بالطبع. كنت تريد أن تخلف تلك الذكرى الأخيرة، وتجعل منها شــيئا جميــلا. تريد أن يذكروك بخير، في حالة أن طائرتك تبين أنها الطائرة الوحيدة الأقل أمنا من المشي إلى محل على ناصية الطريق.

إن كانــت تلــك الطريقة التي نتصرف بها قبــل قضاء إجازة لخمســة أيام في مالوركا، فلم لا يكون هناك تجهيز أشــمل قبل نهاية الحياة، باقتراب تلك الرحلة الأخيرة،العربة المزودة بمحرك

عبر ستار المحرقة؟ لا تذكرني بالشر، اذكرني بالخير. أخبر الناس أنك كنت مولعا بي، أنك أحببتني، أني لم أكن شخصا سيئا. ربما حتى لو كان كل ذلك غير صحيح.

فتحت ألبوما قديما للصور ونظرت إلى الصورة التي طلبت مني أن ألتقطها عند ميدان ترافالغار «صورة مع أصدقائك». كان ألكس وكولن يبديان وجوها مبالغا فيها مرتسمة للحدث التاريخي، وبدا أدريان جديا كعادته، بينما فيرونكا - أمر لم ألاحظه من قبل - كانت تستدير قليلا نحوه. لم تكن تنظر إلى الأعلى إليه، لكنها أيضا لم تكن تنظر إلى الكاميرا. بكلمات أخرى، لم تكن تنظر إلي. أحسست بالغيرة ذلك اليوم. أردت أن أقدمها لأصدقائي، أردتها أن تحبهم وأردتهم أن يحبوها، لكن بالطبع ليس أكثر من حب أي منهم لي. وهو توقع قد يكون صبيانيا وغير واقعي. ولذلك حين ظلت تسأل أدريان أسئلة، صرت عدوانيا، وحين - بعدها في مقهى الفندق - حقر أدريان الأخ جاك ورفاقه، شعرت فورا بتحسن.

لفترة قصيرة فكرت في تقفي أثر ألكس وكولن. تخيلت نفسي أسألهما عن ذكرياتهما وتوثيقهما. لكن كانا بالكاد جزءا رئيسيا من القصة، لم أتوقع أن تكون ذكرياتهما أفضل من ذكرياتي. وماذا لو اتضح أن توثيقهما كان على عكس ما توقعت من عون؟ في الواقع، توني، أفترض أنه لا ضير في أن أقول الحقيقة بعد هذه السنوات كلها، إلا أن أدريان كان دائما يشهر بك من ورائك. أوه، شيء مثير للاهتمام. نعم، لقد لاحظ كلانا ذلك. قال إنك لم تكن لطيفا أو ذكيا بالقدر الذي كنت تعتقده. فهمت: أي شيء

آخر؟ نعـــم، قال إن طريقتك في إظهار أنـــك أقرب صديق إليه - أقرب، على أي حـــال، منا الاثنين - كانت طريقة غريبة وغير مفهومة. حســـنا، هل ذلك كل شيء؟ ليس تماما، كان في إمكان أي شخص أن يرى أن، ما اسمها، كانت تماطلك حتى يظهر رجل أفضل منك. ألم تلحظ الطريقة التي كانت تغازل بها أدريان حين التقينـــا في ذلك اليوم؟ لقد صدم كلانا من طريقتها. فقد كانت عمليا تهمس في أذنه همسا.

لا، لن يقدما أي عون. والســـيدة فورد ماتت. والأخ جاك خرج من المشهد. الشاهد المحتمل الوحيد، الموثق الوحيد، كان فيرونكا.

قلت إني أريد أن أندس تحت جلدها، أليس كذلك؟ إنه تعبير غريب، تعبير يجعلني أفكر في طريقة مارغريت في شي الدجاج. فهي تزيل بلطف الجلد عن الصـــدر والفخذين، ثم تضع الزبدة والأعشـــاب. عشبة الطرخون، على الأغلب. ربما قليلا من الثوم أيضا، لســـت متأكدا. لم أجربها بنفســـي قـــط، في ذلك الحين أو منـــذ ذلك الحين، صارت أصابعـــي خرقاء جدا، وأتصور أنها ستمزق الجلد.

مارغريت أخبرتني عن طريقة فرنســـية فاخـــرة أكثر للقيام بهذا. فهم يضعون شـــرائح من نبات الكمأة الأسود تحت الجلد، أتعرف ماذا يسمون الطريقة؟ دجاج في منتصف حداده. أعتقد أن الوصفـــة ترجع في تاريخها إلى ذلـــك الزمن الذي اعتاد فيه الناس على ارتداء اللون الأســـود بضعة أشـــهر، واللون الرمادي بضعة أشـــهر أخرى، ثم يرجعون ببطء إلـــى ألوان الحياة. كامل الحداد، منتصف الحداد، ربع الحداد. لا أدري إن كانت تلك هي

الاصطلاحـــات، لكن أعلم أن تداخل ألـــوان اللباس كان مصنفا بشـــكل كامل. في هذه الأيام، كم تطول مدة ارتداء الناس للباس الحداد؟ نصف يوم في معظم الحالات، فترة تكفي فقط لانقضاء الجنازة أو حرق الجثة والمشروبات بعدها.

آســـف، كان ذلك خروجا عن المســـار قليلا. أردت أن أندس تحت جلدها، هذا مـــا قلته، أليس كذلك؟ هل قصدت ما ظننت أني قصدت بهذا، أو شيء آخر؟ «لقد أدخلتك تحت جلدي»، تلك أغنية حب، أليس كذلك؟

لا أريد أن ألوم مارغريت أبدا. ليس بأدنى درجة. لكن، لأعبر عن ذلك ببســـاطة، لـــو كنت وحدي، إذن مـــن كان معي. ترددت بضعـــة أيام قبل أن أرســـل لفيرونكا إيميلا جديدا. ســـألت فيه عن والديهـــا. هل مازال والدها على قيد الحياة؟ هل كانت ميتة أمها ســـهلة؟ وأضفت أنه، برغم لقائي بهمـــا مرة واحدة فقط، لدي ذكريات جميلة. حســـنا، كان في ذلك خمسون في المائة من الصحة. لم أفهم حقا لم ســـألت تلك الأسئلة. أفترض أني أردت أن أفعل شـــيئا عاديا، أو على الأقل أن أتظاهر أن هناك شـــيئا عاديا حتى لو لم يوجد. حين تكون شابا - حين كنت شابا - تود أن تشـــبه عواطفك، تلك العواطف التـــي قرأت عنها في الكتب. تريدها أن تقلب حياتك رأســـا على عقب، أن تخلق وتحدد واقعا جديدا. فيما بعد أعتقد أنك تريدها أن تقوم بشـــيء أقل حدة، شـــيء أكثر عملية، تريدها أن تطمئنك أن كل شيء على ما يرام. وهل هناك خطأ في ذلك؟

كان رد فيرونـــكا مفاجئـــا ومريحا. لم تعتبر أســـئلتي وقحة.

كانت تبدو تقريبا كأنها سعدت بها. مات والدها قبل نحو خمس وثلاثين سنة وأكثر. فقد ازدادت سوءا مشكلة الشرب لديه، كانت النتيجة إصابته بسرطان المريء. توقفت هنا وأنا أشعر بالذنب لأن كلماتي الأولى لفيرونكا على جسر وبلي كانت كلمات وقحة عن مدمني الكحول الصيلعان.

بعد موته باعت أمها البيت في تشيسلهيرست وانتقلت إلى لندن. التحقت بصف لتعليم الفن، وبدأت التدخين، وكانت تؤجر غرفا في منزلها برغم أنها ورثت ما يكفي من المال. ظلت سليمة الصحة حتى ما قبل سنة تقريبا حين بدأت ذاكرتها بخذلانها. كان التخمين أنها تعرضت لسكتة دماغية طفيفة. ثم أخذت تضع الشاي في الثلاجة والبيض في حافظة الخبز، وأشياء من هذا القبيل. في إحدى المرات كادت تحرق المنزل حين تركت سيجارة مشتعلة. بقيت مبتهجة خلال تلك الفترة حتى انهارت تماما. كانت أشهرها الأخيرة معاناة، ولكن لم تكن ميتتها هادئة، غير أنها كانت رحمة لها.

قرأت تلك الرسالة عدة مرات. لم تكن هناك خدعة، إلا إن اعتبرنا أن صدقها نفسه خدعة. فقد كانت قصة عادية حزينة - ومألوفة جدا - حكيت ببساطة.

حين تبدأ بالنسيان - لا أعني ألزهايمر، بل كنتيجة متوقعة للتقدم في العمر - هناك طرق مختلفة تستجيب فيها. يمكنك أن تجلس وتحاول أن تجبر ذاكرتك على تذكر اسم أحد المعارف، زهرة ما، محطة قطارات، رائد فضاء... أو أن تعترف بالفشل وتأخذ خطوات عملية بالرجوع إلى الكتب والإنترنت. أو أنك

تنسى الأمر فقط - تنسى التذكر - ثم تكتشف أحيانا أن الحقيقة المضللة ترجع إلى السطح بعد ساعة أو يوم، وغالبا في تلك الليالي الطويلة من اليقظة، التي يفرضها علينا التقدم في العمر. حسنا، كلنا نعلم ذلك، هؤلاء منا الذين ينسون الأشياء.

لكن نعلم أيضا شيئا آخر: إن الدماغ لا يحب أن يؤطر في نمط ما. ففي ذات الوقت الذي تظن فيه أن كل شيء مسألة تناقص، طرح، قسمة، فإن دماغك، ذاكرتك، قد تفاجئك. وكأنه يقول: لا تتخيل أنك تستطيع أن تسلم مرتاحا بأن الأمر مسألة انهيار تدريجي، الحياة أكثر تعقيدا من ذلك. وهكذا سيرمي الدماغ لك بكسرات بين الحين والآخر، حتى سيفك عقد الذاكرة المعروفة. هذا ما اكتشفت أنه يحدث لي الآن وأنا أطيل التركيز. بدأت أتذكر، ليس بترتيب زمني معين أو ترتيب من حيث الأهمية، تفاصيل مدفونة منذ زمن عن عطلة نهاية الأسبوع البعيدة التي قضيتها مع عائلة فورد. كانت غرفتي في العلية تطل على منظر لغابة من فوق الأسقف، من الأسفل كان في إمكاني أن أسمع الساعة وهي تدق معلنة ساعة جديدة ومتأخرة خمس دقائق بالضبط. قذفت السيدة فورد البيضة المكسورة والمطهية في صندوق القمامة وهي تشعر بالقلق، على البيضة وليس علي. حاول زوجها أن يقنعني بأن أحتسي الشراب بعد العشاء، وحين رفضت، سألني إن كنت رجلا أم فأرا. خاطب الأخ جاك السيدة فورد بـ «الأم»، كما في قوله «متى تعتقد الأم أن العلف قد يجهز للقطعان المتضورة جوعا؟». وفي الليلة الثانية، قامت فيرونكا بشيء أكثر من مجرد الصعود معي إلى الأعلى.

قالت: «ســـوف أصطحب توني إلى غرفته»، وأمسكت بيدي أمام العائلة كلها. قال الأخ جاك: «ما رأي الأم في ذلك؟». لكن اكتفت الأم بالابتســـام. تمنياتي للعائلة بليلة سعيدة في تلك الليلة كانت ســـريعة، صعدنا بتمهل إلى غرفتـــي، وأدارت ظهري إلى الباب وهمست في أذني، «نمْ نومة الأشرار».

أحسســـت بنزوة في البحـــث عن تشيسلهيرســـت في موقع غوغل. واكتشـــفت أنه لم يكن مطلقا في البلدة كنيســـة باســـم القديـــس مايكل. إذن جولة الســـيد فورد الســـياحية أثناء قيادة الســـيارة كانت وهمية، نكتة خاصة، طريقة لمماطلتي. أشك جدا في أنه كان هناك أيضا مقهى باســـم كافيه رويال. ثم دخلت إلى موقع غوغل الأرضـــي، وحلقت وطرت فوق البلـــدة. لكن المنزل الذي كنت أبحث عنه لم يعد موجودا.

في إحدى الليالي ســـمحت لنفسي بأن أحتسي كأسا أخرى، وأدرت حاســـوبي وطلبت عنوان فيرونكا من قائمة العناوين التي تحتوي على عنوانها فقط. اقترحت أن نلتقي مرة أخرى. اعتذرت عن أي شيء غير ملائم قمت به في اللقاء السابق. وعدتها بأني لن أتحدث عن وصيـــة أمها. كان هذا صحيحا أيضا، برغم أني لـــم أدرك حتى كتبت تلك الجملة أني قليلا ما فكرت في أدريان أو يومياته منذ بضعة أيام.

«هل يتعلق اللقاء بإغلاق الدائرة؟». جاء ردها.

رددت: «لا أدري. لكن لن يضير إن التقينا، أليس كذلك؟».

لـــم تجب عن ذلك الســـؤال، لكن حينها لـــم ألاحظ أو أهتم لذلك.

لا أعرف ما السـبب، لكن جزءا مني ظن أنها سـتقترح لقاء على الجسر مرة أخرى. إما ذلك المكان، أو في مكان آخر مريح، وعلـى أمـل أن يكون مكانـا خاصا: مقهى منسـي، قاعة طعام هادئـة، حتى إن كان المقهى في فندق تشـارينغ كروس. اختارت مطعما متواضعا يقع في الطابق الثالث من بناية جون لويس في شارع أكسفورد.

فـي الواقع، كان للمكان جانبه النافع. كنت في حاجة لبضعة أمتار من الحبال لأعيد حياكة ستارة، ومنظف أباريق، ومجموعة مـن تلك الرقع التي تثبتها من داخل البنطال حين تنفتق الركبة. صـار من الصعب أن تعثر على هذه الأشـياء فـي المنطقة، في المنطقة التي أعيش فيهـا، تحولت تلك المحلات منذ زمن طويل إلى مقاه ووكالات للعقارات.

على متن القطار المتوجه إلى وسـط المدينة، كانت هناك فتاة تجلس قبالتي، تضع سـماعات في أذنيهـا، عيناها مغمضتان، لاهية عن العالم من حولها، تتمايل برأسـها مع الموسـيقى التي تسـمعها هي فقـط. وفجأة خطرت لي ذكـرى كاملة: لفيرونكا وهـي ترقص. نعم، لم تحب الرقص - هـذا ما قلت - لكن في إحدى الأمسـيات في غرفتي حين أخـذت تلهو، وبدأت بإخراج تسجيلاتي من موسيقى البوب.

قالت: «شغل واحد منها ودعني أرك وأنت ترقص».

هززت رأسي بالرفض. «نحتاج إلى اثنين لأداء رقصة التانغو».

«حسن، أرني، وسأنضم إليك».

وهكذا كدسـت عمود المبدل الأوتوماتيكي للفونوغراف بـ ٤٥

أســطوانة، وتحركت نحوها، وهززت كتفي لإرخاء عظام هيكلي، وأغمضت عيني نصف إغماضة مظهرا احترامي لخصوصيتها، وبدأت بالرقص. كان ســلوك العرض الرئيســي للرجل في تلك الفترة أمرا يحدده الفرد بينما كان في الواقع يعتمد على محاكاة صارمة للأســاليب السائدة: هزة الرأس العنيفة ووثبة القدمين، التواء الكتفين ووكزة الحوض، يضاف إليها رفع الذراعين بنشوة وإصدار أصوات نخر بين الحين والآخر. بعد لحظة فتحت عيني متوقعا إياها أن تكون جالســة علــى الأرض تضحك مني. لكنها كانــت هناك، تقفز في المكان بطريقة جعلتني أشــك في أنها لم تدرس إلباليه، وكان شــعرها يغطي كل وجهها، وباطنا ســاقيها مشــدودين ومنتفخين تماما. شــاهدتها للحظة، غير متأكد إن كانت تهزأ مني أو أنها كانت تســتمتع بشــكل طبيعي بموسيقى المودي بلوز. في الواقع لم أهتم، كنت مســتمتعا وأشعر بانتصار صغير. اســتمر ذلك فترة من الزمن، ثم اقتربت منها حين انتهت أغنية نيد ميلر (من رجل إلى ملك) وبدأ بوب ليند يغني (الفراشة المراوغة). لكنها لم تنتبه لي، وحين استدارت ارتطمت بي، حيث كادت تفقد توازنها. لكني جذبتها وأمسكت بها.

«أترين، إنه ليس بتلك الصعوبة».

«أوه، لم أظن أبدا أنه صعب»، أجابت. «حســنا. نعم. شكرا»، قالت بطريقة رسمية، ثم مشت وجلست.

«تابع إن كنت ترغب في ذلك. أنا اكتفيت».

مع ذلك، لقد رقصت.

قمــت بجولاتي فــي أقســام الخــردوات والأدوات المنزلية

والســـتائر، ثم توجهت إلى المطعم. وصلت قبل عشر دقائق، لكن بالطبــع كانت فيرونكا قد وصلت قبلي، كان رأســـها منحنيا إلى الأســـفل منهمكة في قراءة كتاب، وعلى ثقة بأني سأعثر عليها. حين وضعت الأكياس على الطاولة رفعت رأسها وابتسمت نصف ابتسامة.

قلت، «مازلت أصلع».

استمرت في الابتسام ربع ابتسامة.

«ماذا تقرئين؟».

أدارت غلاف الكتاب نحوي. شيء كتبه ستيفان زويغ.

«إذن أخيرا وصلت لنهاية الحروف الأبجدية. لا يمكن أن يكون هناك كاتب آخر بعده». لم صرت فجأة متوترا؟ كنت أتحدث مرة أخرى مثل شاب في العشرين من عمره. أيضا، لم أكن قد قرأت شيئا لستيفان زويغ.

قالت: «سوف أتناول الباستا».

حسنا، على الأقل لم تقم بإذلالي.

بينمـــا كنـــت أتفحص قائمة الطعـــام، تابعت القـــراءة. كانت الطاولـــة تطـــل على ســـلالم كهربائية صاعـــدة وهابطة. أناس يصعدون، أناس ينزلون، كل يشتري شيئا.

«حـــين كنت على متن القطار كنت أتذكـــر اليوم الذي رقصنا فيه. في غرفتي. في بريستول».

توقعـــت أن تخالفنـــي، أو تأخذ موقفا هجوميـــا عصيا على الفهـــم. لكنها اكتفت بالقـــول: «أتعجب لم تذكـــرت ذلك». ومع تلك اللحظة من التوثيق، بدأت أســـتعيد ثقتي. كانت ملابســـها

أكثر أناقة هذه المرة، كان شـعرها منسقا أكثر وأقل بياضا. فقد اسـتطاعت بطريقة ما أن تبدو - بالنسبة إلي - في العشرينات والستينات في آن معا.

قلت: «إذن، كيف كانت الأربعين سنة الماضية من حياتك؟».

نظرت إلي: «أنت ابدأ أولا».

سـردت لها قصة حياتي. تلك النسخة التي أسردها لنفسي، تلك الرواية التي لا تتغير. سـألت عـن «أصدقائك هؤلاء الذين التقيت بهم مرة»، من دون، كما يبدو، أن تستطيع تذكر أسمائهم. أخبرتها كيف انقطـع تواصلي مع كولن وألكس. ثم أخبرتها عن مارغريت وسـوزي وكيف صرت جدا، بينما كنت أطرد همسات مارغريت من رأسي عن «كيف حال كعكة الفواكه؟». تحدثت عن حياتي المهنية وتقاعدي، وإشـغال نفسي، وإجازات الشتاء التي قضيتها، هذه السـنة كنت أفكر في سينت بيترزبيرغ في موسم الثلـج كنوع مـن التغيير... حاولت أن أبـدو مقتنعا بحياتي لكن لسـت راضيا عن نفسي. كنت في منتصف الحديث عن أحفادي حين رفعت رأسـها وشربت قهوتها جرعة واحدة، ووضعت بعض المال على الطاولة ووقفت. بدأت تناول أغراضي، في حين قالت:

«لا، ابق أنت وأنهِ قهوتك».

كنت مصرا على ألا أقوم بفعل يسـبب إهانة، ولهذا جلسـت مرة أخرى.

قلت: «حسنا، دورك التالي»، أعني: حياتها.

«دوري لفعل ماذا؟». سألتني، لكنها ذهبت قبل أن أجيب.

نعم، أعرف ما قامت به. لقد اسـتطاعت أن تمضي سـاعة

برفقتي من دون أن تكشف حقيقة واحدة، فضلا عن سر واحد، عن حياتها. أين عاشت وكيف، إن عاشت مع أحد آخر، أو إن كان لديها أطفال. كانت تضع على أصبع الزفاف خاتما زجاجيا أحمر، كان غامضا مثل غموضها. لكن لم أبال، بالتأكيد، وجدت نفسي أستجيب كأني كنت في أول موعد غرامي مع شخص ما وقد أفلت من دون القيام بشيء كارثي. لكن بالطبع لم يكن الأمر بتلك الصورة تماما. فبعد أول موعد غرامي لا تجلس على متن قطار وتجد رأسك وقد غمرته الحقيقة المنسية عن حياتنا المشتركة قبل أربعين سنة. كم كنا منجذبين أحدنا للآخر، كم شعرت بها خفيفة في حضني، كم كان الأمر كله مثيرا، رغم أننا لم نعش تجربة كاملة، كانت جميع عناصرها - الشهوة، الحنان، الإخلاص، الثقة - موجودة معنا. وكيف أن جزءا مني لم يمانع في ألا «تكون تجربة كاملة»، لم أمانع بالنوم في السرير وحدي معي إلا ذكرياتي. هذا التقبل بأقل ما يتقبله آخرون كان أيضا سببه الخوف، بالطبع الخوف من الحمل، الخوف من فعل أو قول الشيء الخطأ، الخوف من حميمية غامرة لن أستطيع التعامل معها.

كان الأسبوع التالي هادئا جدا. أعدت حياكة الستارة، نظفت الإبريق، أصلحت الفتق في بنطال الجينز القديم. كنت أعرف أن مارغريت ستبقى صامتة ما لم أتواصل معها. ثم ما الذي كانت تتوقعه؟ اعتذار، تذلل؟ لا، لم تكن عقابية، كانت دائما تقبل ابتسامة نادمة مني كاعتراف بحكمتها العظيمة. لكن قد لا يكون هذا هو الحال في هذه المرة. في الحقيقة قد لا أرى مارغريت

لمدة من الزمن. شعر جزء مني بالبعد عنها، بشعور سيئ للغاية نحوها. في البداية، لم أستطع فهم ذلك، فقد كانت هي التي أخبرتني أنني بمفردي الآن. ثم خطرت لي ذكرى من زمن بعيد مضى، من السنوات الأولى لزواجنا. فقد أقام صديقي في العمل حفلة ودعاني إليها، لم ترغب مارغريت في الذهاب. غازلت فتاة واستجابت لمغازلتي. حسنا، كان الأمر أكثر قليلا من مغازلة، لكن أخفيته حالما صحوت. مع ذلك، خلفت التجربة لدي الشعور بالإثارة والذنب بنسب متساوية. وأدركت الآن أني أشعر بشيء شبيه مرة أخرى. لقد استغرق مني إدراك ذلك بعض الوقت. قلت لنفسي: حسنا، إذن أنت تشعر بالذنب نحو زوجتك السابقة التي طلقتك منذ عشرين سنة، والإثارة نحو حبيبتك القديمة التي لم ترها منذ أربعين سنة. من قال إنه لم تعد هناك مفاجآت في الحياة؟

لم أرغب في أن أضغط على فيرونكا. ظننت أنه يفضل أن أنتظر منها التواصل معي هذه المرة. تحققت من وارد بريدي بمواظبة. بالطبع لم أكن أتوقع إفاضة كبيرة، لكن أملت، ربما، برسالة مؤدبة فحواها أنه كان من الجميل أن تلتقي بي بشكل لائق بعد كل تلك السنوات.

حسن، لعل لقاءنا لم يكن جميلا. لعلها ذهبت في رحلة. لعل خط خدمة الإنترنت لديها كان معطلا. من قال ذلك الشيء عن الرجاء الأبدي للقلب البشري؟ تعرف كيف تقرأ القصص من حين إلى آخر عما تسميه الصحف «الحب متأخر الإزهار»؟ في العادة عن رجل وامرأة عجوزين غريبي الأطوار في بيت

المســنين؟ كلاهما مرمل، تكشف ابتســامتهما عن طقمي أسنان بينما تتشــابك يداهمــا المصابتان بداء المفاصــل؟ غالبا مازالا يتكلمان ما يبدو أنها لغة حب الشــباب غير الملائمة لســنيهما. «حالما وقعت عيناي عليه/عليها، عرفت أنه/أنها الشخص الذي خلــق لي» - هذ النوع من الكلام. جزء منــي يكون دائما متأثرا ويرغب في أن يهتف، لكن جزءا آخر يكون متحفظا ومرتبكا. لم عليك أن تمر بالتجربة من جديد مرة أخرى؟ ألا تعرف القاعدة: لا تلدغ من جحر مرتين؟ لكن الآن، وجدت نفســي ثائرا على... ماذا؟ تقليديتي، افتقــاري للخيال، توقعاتي بخيبة الأمل؟ أيضا، فكرت أني مازلت أحتفظ بأسناني الطبيعية.

في تلك الليلة، ذهبت مجموعة منا إلى منســتيرورث ســعيا وراء موجــة نهر ســيفرن. كانت فيرونكا إلــى جانبي. لا بد أن دماغي محاها من سجل ذاكرتي، لكن الآن أنا متأكد أن ذلك كان حقيقة. كانت هناك معي. جلســنا على بطانية رطبة على جانب النهر الرطب يمسك أحدنا بيد الآخر، كانت قد أحضرت زجاجة من الشــكولاتة الســاخنة. أيام البراءة. ســطع ضوء القمر على الموجة المتكســرة حين اقتربت. هتف الآخرون لوصولها، وهتفوا بعد مرورها، وكانت تطاردهم في الليل مع ترامي أضواء مشاعل متقاطعة. بقينا وحدنا، وتحدثت أنا وهي عن كيف تحدث أحيانا أشياء مستحيلة الحدوث، أشياء لن تصدق حدوثها ما لم تشهدها بنفسك. كان مزاجنا متأملا، مكتئبا، أكثر منه منتشيا.

على الأقل، هذا هو الحال الآن الذي أتذكر عليه تلك اللحظة. رغم أنه لو وضعتني في محكمة فإني أشك في أني سأتمكن من

الصمود عند التحقيق معي بشكل جيد. «ومع ذلك أنت تدعي أن تلك الذكرى كانت غائصة لمدة أربعين عاما؟». «نعم». «وظهرت إلى السطح أخيرا فقط؟». «نعم». «هل باستطاعتك أن تفسر لم ظهرت إلى السطح؟». «ليس حقا». إذن دعني أقل لك، سيد وبستر، إن هذه الحادثة المفترضة ما هي إلا تلفيق كامل من نسج خيالك، ابتدعها ليبرر تعلقا عاطفيا يبدو أنك كنت تشعر به نحو موكلتي، وهو تطاول، ليكن في علم المحكمة، تجده موكلتي بغيضا جدا. «نعم، ربما. لكن». «لكن ماذا، سيد وبستر؟». «لكن نحن لا نحسب الكثير من الناس في هذه الحياة. واحد. اثنان. ثلاثة؟ وأحيانا لا نعرف تلك الحقيقة حتى وقت متأخر جدا. إلا أنه ليس بالضرورة أن يكون الوقت متأخرا أكثر مما ينبغي. هل قرأت تلك القصة عن حب متأخر الإزهار التي حدثت في بيت للمسنين في بارنستيبل؟». «أوه رجاء، سيد وبستر، وفر علينا جهودك العاطفية. هنا محكمة تتعامل مع الحقيقة. ما هي بالضبط الحقائق في قضيتك؟».

في إمكاني أن أرد فقط أني أعتقد - أُنظِّر - أن شيئا - شيئا آخر - حدث لذاكرتي مع مرور الزمن. على مدى سنوات تبقى على قيد الحياة وأنت مرتبط بعقد الذاكرة نفسه، بالحقائق نفسها، والعواطف نفسها. تضغط على زر مشار إليه بأدريان وفيرونكا، يدور الشريط، يكرر الشيء المعتاد. الأحداث تعيد تأكيد العواطف - الازدراء، الشعور بالغبن، الارتياح - والعكس صحيح. ويبدو أنه لا توجد طريقة أخرى للوصول إلى أي شيء آخر، أغلقت القضية. ولهذا فإنك تبحث عن التوثيق، حتى إن

تبــين أنه متناقــض. لكن ماذا لو، حتى فــي مرحلة متأخرة، أن العواطف المرتبطة بأحداث وأناس في الماضي البعيد قد تغيرت؟ تلك الرسالة القبيحة التي كتبتها أثارت فيَّ الندم. قصة فيرونكا عــن موت والديها - نعم، حتــى أبوها - أثرت فيَّ أكثر مما كنت أعتقد. شــعرت بتعاطف جديــد نحوهما ونحوها. ثم، ليس بعد ذلــك بزمن طويل، بدأت تذكر أشــياء منســية. لا أدري إن كان هناك تفسير علمي لهذا - له علاقة بحالات مؤثرة جديدة تعمل على إعادة فتح الممرات العصبية المســدودة. كل ما أستطيع قوله أن ذلك حدث وأنه يحيرني.

هكــذا، على أي حــال - وبغض النظر عــن المحامي الموجود في رأســي - أرســلت إلى فيرونكا إيميلا واقترحــت أن نلتقي مرة أخرى. اعتذرت عن حديثي الطويل. أردت أن أســمع المزيد عــن حياتها وعائلتها. علي أن أتوجــه إلى لندن في وقت ما في الأسابيع القليلة المقبلة. هل تفكر في الوقت نفسه، المكان نفسه؟

كيــف كان الناس في الماضي يتحملون انتظار الرد حين كانت تستغرق الرسائل وقتا طويلا لكي تصل؟ أعتقد أن ثلاثة أسابيع فــي انتظار رجــل البريد لابد أنها تعادل ثلاثــة أيام في انتظار إيميل. ما هو الإحســاس بثلاثة أيام من الزمن؟ ســتكون طويلة بدرجــة تكفي لإحســاس كامل بالمكافأة. فيرونــكا حتى لم تمح عنوانــي - «مرحبا مرة أخرى» - الــذي بدا لي الآن مرحا. لكن لا يمكن أن تكون قد شــعرت بإساءة، لأنها كانت تعطيني موعدا غراميا، بعد أسبوع، في الساعة الخامسة بعد الظهر، في محطة أنفاق غير معروفة تقع شمالي لندن.

وجدت ذلك مثيرا. من لن يشعر بذلك؟ صحيح، إنها لم تقل: «أحضر ملابسك الليلية وجواز سفرك»، لكن تصل إلى مرحلة من العمر يصبح فيها تنوع الحياة محدودا بشكل مثير للشفقة. مرة أخرى، كان حدسي الأول هو أن أهاتف مارغريت، ثم فكرت من الأفضل ألا أفعل. على أي حال، مارغريت لا تحب المفاجآت. كانت - ولاتزال - شخصا يحب أن يخطط للأشياء. قبل أن تلد سوزي اعتادت أن تراقب دورة خصوبتها لتقترح متى يكون الوقت ملائما. الأمر الذي إما أن يضعني في حالة من التشوق الساخن أو - على العكس، بالتأكيد عادة - أن يكون له تأثير معاكس. مارغريت لن تعطيك أبدا موعدا غراميا غامضا عند خط أنفاق بعيد. بالأحرى، سوف تلتقي بك تحت ساعة المحطة في بادينغتون لغرض محدد. هذا لا يعني أن هذا ما أردت حياتي أن تكون عليه في ذلك الحين، عليك أن تفهم هذا.

أمضيت أسبوعا أحاول فيه أن أحرر ذكريات جديدة عن فيرونكا، لكن لم يظهر شيء إلى السطح. لعلني كنت أحاول بجهد كبير، بحيث ضغطت على دماغي. لهذا بدلا من ذلك، أعدت شريط الذكريات الذي كنت أحتفظ به والصور المألوفة منذ زمن بعيد والذكريات القادمة حديثا. سلطت عليها الضوء وقلبتها بين أصابعي، محاولا أن أرى إن كانت الآن تعني شيئا مختلفا. بدأت إعادة تفحص ذاتي الشابة، بقدر ما كان ذلك ممكنا. بالطبع، كنت فظا وساذجا - جميعنا نكون كذلك، لكن لم أعرف أن أبالغ بتلك الصفات، لأن ذلك في حده سيكون أسلوبا للثناء على نفسي لما صرت عليه. حاولت أن أكون موضوعيا.

تلك النسخة من علاقتي مع فيرونكا، النسخة التي حملتها معي مع مرور السنين، هي النسخة التي كنت في حاجة إليها في ذلك الحين. قلب شاب تمت خيانته، جسم شاب عبث به، ذات اجتماعية شابة أذلت. ماذا كانت إجابة أولد جو هانت حين ادعيت بدراية أن التاريخ أكاذيب المنتصرين؟ «طالما أنك تتذكر أنه أيضا أوهام المنهزمين». هل نتذكر ذلك بشكل واضح حين يتعلق الأمر بحياتنا الخاصة؟

يقول منكرو الزمن: أربعون لا شيء، في الخمسين أنت في قمة عطائك، الستون هي مرحلة الأربعين الجديدة، وهكذا. أعرف هذا القدر، هناك زمن موضوعي، لكن هناك أيضا زمنا شخصيا، ذلك النوع من الزمن الذي ترتديه على باطن رسغك، بالقرب من دقات النبض. وهذا الزمن الشخصي، وهو الزمن الصادق، يقاس بالنسبة إلى علاقتك مع الذاكرة. لهذا حين حدثت تلك الأشياء الغريبة - حين خطرت لي بشكل مفاجىء تلك الذكريات الجديدة - كان الأمر كأن الزمن، في تلك اللحظة، وضع في مسار عكسي. وكأن النهر، في تلك اللحظة، جرى ضد تياره.

بالطبع، كنت مبكرا جدا، لهذا نزلت من القطار قبل محطة وجلست على مقعد أقرأ صحيفة مجانية. أو على الأقل، كنت أحدق فيها. ثم أخذت قطارا متوجها للمحطة التالية، حيث أوصلني سلم كهربائي إلى قاعة لبيع التذاكر في جزء من لندن غير مألوف لي. حين مررت عبر الحاجز لمحت هيئة وطريقة وقوف معينة. على الفور استدارت ومشت بعيدا. تبعتها مارا

بمحطة للباصات تؤدي إلى شـــارع جانبي حيث فتحت ســيارة. جلست في مقعد الركاب ونظرت حولي. كانت قد أدارت المحرك.

«هذا غريب. لدي سيارة من طراز بولو أيضا».

لم تجب. كان حريا بي ألا أدهش. من معرفتي وذاكرتي عنها، برغـــم أنها قديمة، الحديث عن الســـيارات لا يؤثر في فيرونكا مطلقـــا. لا يؤثر فـــيَّ أيضا - رغم أني كنـــت أعرف أفضل مما أستطيع شرحه.

كان الوقـــت بعد الظهيرة والجو لايزال حارا. فتحت نافذتي. ألقت نظرة جانبية إلي، وهي عابسة. أغلقت النافذة. أوه، حسنا، قلت لنفسي.

«كنت أفكر قبل أيام في اللحظات التي شـــاهدنا فيها موجة نهر سيفرن».

لم تجب.

«هل تذكرين ذلك؟». هـزت رأســـها بالنفـــي «حقا لا تذكرين؟ كانت عصبة منا متجهة إلى منسترورث. كان القمر..».

قالت: «أنا أقود السيارة».

«حســـنا»، إن كانت تريد الأمر بتلـــك الطريقة. على كل حال، كانت الرحلة رحلتها. نظرت خارج النافذة بدلا من ذلك. محلات بقالـــة، مطاعم رخيصة، أناس يصطفون فـــي طابور أمام جهاز للصرف، نســـاء تندفع أجزاء من لحمهن من بين الملابس، كومة من النفايات، شـــخص مجنـــون يصرخ، أم ســـمينة برفقة ثلاثة أطفال ســـمان، وجوه من جميع الأجناس، شـــارع رئيسي لجميع الأغراض، هذه لندن.

بعــد بضع دقائق، وصلنا إلى منطقــة راقية: بيوت متباعدة، حدائق أمامية، تلة. أطفأت فيرونكا المحرك وأوقفت الســيارة. فكرت: حسنا، إنها لعبتك، سأنتظر القواعد، مهما عساها كانت تلك القواعد. لكن جزءا منــي فكر أيضا، اللعنة، لن أتوقف عن التصرف على طبيعتي فقط لأنك عدت إلى حالتك الذهنية التي كنت عليها على جسر وبلي.

«كيف حال الأخ جاك؟». ســألت بمرح. لم تسـتطع أن تجيب بـ «أنا أقود السيارة» على ذلك السؤال.

«جاك هو جاك»، أجابت دون النظر إلي.

حســنا، ذلك واضح من وجهة نظر فلســفية، كما اعتدنا أن نقول في أيام أدريان.

«هل تذكرين».

«انتظر»، قاطعتني.

حســنا جدا، فكرت. أولا لقاء، ثم قيــادة، الآن انتظار. ماذا بعد ذلك؟ تســوق، طهي، أكل وشرب، عناق وقُبل؟ أشك في ذلك جدا. لكن حين جلســنا جنبا إلى جنب، رجــل أصلع وامرأة نما ســالفان على عارضيها، أدركت مــا كان حريا بي أن أدركه على الفور. كانت فيرونــكا أكثر توترا. وفي حين كنت متوترا حيالها، من الواضح أنها لم تكن متوترة حيالي. كنت مثل شخص قاصر، مغيظ ضروري. لكن لم كنت ضروريا؟

جلســت وانتظــرت. تمنيت جدا لو لم أتــرك تلك الصحيفة المجانية على متن القطار. تســاءلت لماذا لم أقد السيارة إلى هنا بنفســي. على الأغلب لأني لم أكن أعرف القيود المفروضة على

قوانين الاصطفاف. أردت شربة من الماء. وأردت أيضا أن أتبول. أنزلت شباك النافذة. لم تعترض فيرونكا هذه المرة.

«انظر».

نظرت. كانت مجموعة من الأشخاص قادمة على الرصيف نحو جانبي من السيارة. عددت خمسة منهم. في المقدمة كان هناك رجل، رغم الحرارة، يرتدي طبقات من النسيج الصوفي، بما في ذلك صدار وخوذة مثل تلك التي يرتديها صائدو الأيل. كانت سترته وقبعته مغطيتين بشارات معدنية، ثلاثين أو أربعين منها عند أول تخمين، بعضها يتلألأ في الشمس، كانت هناك سلسلة ساعة متدلية من جيب صداره. كانت تعابيره مرحة، بدا كأنه شخص له وظيفة مبهمة في سيرك أو في ملاه. خلفه مشى رجلان: الأول كان له شاربان أسودان ويتدحرج في مشيته، الثاني كان صغير الحجم وبه تشوه، إذ كان أحد كتفيه أعلى بكثير من الآخر، توقف ليبصق بسرعة في إحدى الحدائق الأمامية. وخلفه كان يمشي رجل طويل مضحك يرتدي نظارات ويمسك بيد امرأة مكتنزة ذات ملامح هندية.

«الحانة». قال الرجل ذو الشاربين حين اقترب بعضهم من بعض.

«لا، ليس الحانة»، أجاب الرجل الذي يرتدي شارات.

«الحانة»، أصر الرجل الأول.

«المحل»، قالت المرأة.

كانوا يتكلمون جميعهم بأصوات عالية، كأنهم أطفال خرجوا للتو من المدرسة.

«المحل»، كرر القول الرجــل غير متوازن الكتفين، ذو البصقة الجميلة التي أودعها بين الشجيرات.

كنت أنظر بقدر ما أســتطيع من التنبه لأن ذلك ما طُلب مني أن أفعلــه. أفتــرض أن جميعهــم لا بد أنهم كانــوا بين الثلاثين والخمســين من أعمارهــم، ومع ذلك كانت بهــم صفة ثابتة من الشباب الدائم. أيضا، كانت بهم صفة ظاهرة من الخجل، أكدتها الطريقــة التي كان عليهــا الرجل والمرأة فــي الخلف حيث كان أحدهما يمســك بيد الآخر. لم تبد علاقة غرامية، بل أكثر منها دفاعــا ضد العالــم. تجاوزونا بعدة أقــدام دون أن ينظروا إلى السيارة. مشى خلفهم ببضع ياردات شاب يرتدي سروالا قصيرا وقميصا عنقه مفتوح، لم أســتطع أن أميز إن كان قائدهم أو لا علاقة له بهم.

خيم صمت طويــل. من الواضح أنه كان علي أن أقوم بالعمل كله.

«إذا؟».

لم تجب. لعل ذلك كان سؤالا عاما أكثر مما يجب.

«ما مشكلتهم؟».

«ما مشكلتك أنت؟».

لــم يبد ذلك جوابا له صلة بالموضــوع، برغم ما فيه من نبرة لاذعة. لهذا تابعت مصرا.

«هل للأمر علاقة بذاك الشاب معهم؟».

صمت.

هل لهم علاقة برعاية المجتمع، أو شيء من هذا القبيل؟

ارتطم رأسي بمسند المقعد حين أفلتت فيرونكا فجأة قابض السيارة. انطلقت بسرعة عالية لمسافة حاجز أو اثنين، مُسرِّعة السيارة عند مطبات السرعة كأن السيارة تقدم عرضا للقفز. كان تبديلها للسرعة، بالأحرى عدم تبديلها، فظيعا. استمر ذلك لمدة أربع دقائق، ثم انعطفت بسرعة إلى مصف للسيارات، بحيث صعدت على الرصيف بالعجل الأمامي قبل أن ترتد السيارة مرة أخرى إلى الخلف.

وجدت نفسي أفكر: مارغريت كانت دائما سائقا لطيفا. ليس فقط مجرد سائق حريص، بل كانت أيضا تعامل السيارة بشكل لائق. في الماضي حين تلقيت دروسا في تعليم القيادة، شرح لي مدربي أنه حين تبدل السرعة، يجب أن يكون تعاملك مع القابض ومبدل السرعة رقيقا غير محسوس إلى درجة أن رأس الراكب إلى جنبك لا يتحرك مقدار سنتميتر واحد عن عموده الفقري. لقد أثر فيَّ ذلك، وغالبا ما انتبهت له حين يسوق بي آخرون. لو عشت مع فيرونكا، لزرت طبيب العلاج الطبيعي في معظم الأسابيع.

«أنت لا تفهم الأمر مطلقا، أليس كذلك؟ لم تفهمه، ولن تفهمه أبدا».

«أنا لا أتلقى مساعدة كبيرة في ذلك».

ثم رأيتهم - أيا كانوا - يتجهون نحوي. كان ذلك الغرض من المناورة: أن تسبقهم مرة أخرى. كنا نقف إلى جانب محل ومغسلة للثياب، وكانت هناك حانة على الجانب المقابل من الشارع. الرجل الذي يرتدي شارات «المنادي»، تلك هي الكلمة

التي كنت أبحث عنها، ذلك الشخص المرح الذي يقف عند مدخل الملاهي ويشـجعك على الدخول لمشاهدة السيدة ذات اللحية أو الباندا ذي الرأسـين - كان لايزال في المقدمة. الأربعة الآخرون كانوا الآن يحيطون بالرجل ذي السـروال القصير، لهذا يبدو أنه كان منهـم. كما يبدو أنه أحد عمال الرعايـة. في تلك اللحظة سمعته يقول:

«لا يا كِنّ، لـن نذهب إلى الحانة اليوم. ليلة الجمعة هي ليلة الحانة».

«الجمعة»، كرر القول الرجل ذو الشاربين.

انتبهت إلى فيرونـكا وقد خلعت حزام الأمان وفتحت الباب. حين هممت أن أفعل مثلها، قالت:

«ابق». كأني كنت كلبا.

كان الجـدل حول المحـل أو الحانة لايزال دائـرا حين انتبه أحدهم إلى فيرونكا. خلـع الرجل الذي يرتدي الكنزة الصوفية قبعته ووضعها عند قلبه، ثم انحنى برقبته. أخذ الرجل المشـوه بالقفز إلى الأعلى والأسـفل في مكانـه. أفلت الرجل المضحك يد المرأة. ابتسـم عامل الرعاية ومد يده مصافحا فيرونكا. بعد لحظة كانت فيرونكا محاطة بهم. كانت المرأة الهندية الآن تمسك بيـد فيرونكا، والرجل الذي يرغب فـي الذهاب إلى الحانة كان الآن يضع رأسـه على كتف فيرونـكا. لم تبد أنها تمانع في هذا الاهتمام مطلقا. شاهدتها تبتسم لأول مرة في عصر ذلك اليوم. حاولـت أن أسـمع ما يدور من قول، لكـن كان هناك الكثير من الأصوات المتداخلة. ثم رأيت فيرونكا تستدير وسمعتها تقول:

«قريبا».

«قريبا»، كرر القول اثنان أو ثلاثة منهم.

قفز الرجل المشوه عدة مرات أخرى في مكانه، ابتسم الرجل المضحك ابتسامة عريضة بلهاء وصاح: «وداعا، ماري!» أخذوا يلحقون بها إلى السيارة، ثم انتبهوا لي في مقعد الركاب فتوقفوا على الفور. أخذ أربعة منهم يلوحون مودعين باهتياج، في حين اقترب بجرأة الرجل ذو الكنزة الصوفية إلى جانبي من السيارة. كان لايزال ممسكا بقبعته بالقرب من قلبه. مد يده الأخرى عبر نافذة السيارة وصافحتها.

«نحن ذاهبون إلى المحل»، قال لي بطريقة رسمية.

«ما الذي تريدون شراءه؟». سألته بالطريقة الرسمية نفسها.

جعله ذلك يرجع إلى الوراء، وفكر في الأمر مليا.

«أشياء نحتاجها»، أجاب أخيرا. أومأ لنفسه، وأضاف آملا، «متطلبات».

ثم قام بانحناءته القصيرة الرسمية برقبته، واستدار، وأرجع قبعته المثقلة بالشارات إلى رأسه.

«يبدو أنه شاب لطيف جدا»، قلت معلقا.

أدركت أنها لن تجيب عن أي شيء أقوله. وأنها كانت شديدة الغضب، مني بالتأكيد، لكن من نفسها أيضا. لا أستطيع القول أني شعرت بأني قمت بشيء خطأ. كنت على وشك أن أفتح فمي حين رأيتها تتجه بالسيارة إلى أحد المطبات دون أن تبطئ، وخطر ببالي أني قد أعض طرف لساني من شدة الصدمة. لهذا انتظرت حتى تجاوزنا بأمان المطب وقلت:

«أتساءل كم عدد الشارات التي يمتلكها ذلك الشاب».

صمت. مطب سرعة.

«هل يعيش جميعهم في البيت نفسه؟».

«إذن ليلة الحانة تكون يوم الجمعة».

صمت. مطب سرعة.

«نعم، لقد ذهبنا إلى منسترورث معا. كان القمر طالعا تلك الليلة».

صمت. مطب سرعة. انعطفنا الآن إلى الشارع الرئيسي، ولم يكن يفصلنا عن المحطة إلا طريق إسفلتية مستوية، بقدر ما أتذكر.

«إن هذا جزء من المدينة مثير للاهتمام جدا». فكرت أني إن أغضبتها، قد أخرج بنتيجة، مهما كانت تلك النتيجة. إن معاملتها مثل معاملة شركة تأمين أصبح الآن شيئا من الماضي.

«نعم، أنت على حق، علي أن أعود إلى البيت بسرعة».

«مع ذلك، كان جميلا أني التقيت بك على طعام الغداء في ذلك اليوم».

«هل هناك كتب لستيفان زويغ توصين بها بالتحديد؟».

«هناك الكثير من الناس السمان في هذه الأيام. السمنة. هذا كان أحد التغيرات منذ أن كنا صغارا، أليس كذلك؟ لا أستطيع أن أتذكر شخصا في بريستول كان سمينا».

«لماذا ناداك ذلك الشاب المضحك باسم ماري؟».

على الأقل كنت أرتدي حزام الأمان. هذه المرة كان أسلوب اصطفاف فيرونكا يتألف من تصعيد العجلتين الأماميتين على

الرصيف بسرعة عشــرين ميلا في الساعة تقريبا، ثم الضغط على المكابح.

«اخرج»، قالت وهي تحدق أمامها.

أومأت، وخلعــت حزام الأمان، وخرجت ببطء من الســيارة. تركــت الباب مفتوحا لمدة أطول من الــلازم، فقط لكي أزعجها للمرة الأخيرة، وقلت:

«سوف تتلفين إطاراتك إن تابعت القيادة بهذه الطريقة».

انتُزع الباب من يدي حين انطلقت مبتعدة.

جلســت في القطار المتوجه إلى البيــت من دون أن أفكر في شــيء، حقا، كنت فقط أشعر بشــيء. ولم أكن حتى أفكر فيما أشعر به. في ذلك المساء فقط بدأت أتعامل مع ما حدث.

السبب الرئيســي في إحساســي بأني أحمق وقد تم إذلالي هو - ما أسميته لنفسي، قبل بضعة أيام فقط - «الرجاء الأبدي فــي القلب البشــري». وقبل ذلــك، «إغراء التغلــب على ازدراء شخص ما». لا أعتقد أني عادة أصاب بالغرور، لكن من الواضح أنــي أصبت به بدرجة أكبر ممــا أدركت. ما بدا على أنه إصرار للحصــول علــى ممتلكات ورثتها تحول إلى شــيء أكبر من ذلك بكثير. شــيء تعلق بحياتي بأكملهــا، بالزمن والذاكرة. والرغبة. فكــرت - عند نقطة من كينونتي، اعتقدت فعلا ذلك - أن أعود إلى البداية وأغير أشياء. أني أستطيع أن أجعل الدم يتدفق إلى الــوراء. أصبت بالغرور بحيث تصــورت - حتى لو لم أعبر عنه بشكل أقوى من ذلك - أني أستطيع أن أجعل فيرونكا تحبني مرة أخــرى، وأنه من المهم أن يحدث ذلــك. حين تحدثت في إيميلها

عن «إغلاق الدائرة»، أخفقت تماما في فهم لهجتها على أنها تهكمية ساخرة، وفسرت ذلك على أنه دعوة للرجوع.

موقفها تجاهي، حين أنظر إليه الآن، كان دائما راسخا، ليس فقط في الأشهر الأخيرة، بل على مدى سنين مهما كان عددها. لقد رأت فيَّ عوزا، وفضلت عليَّ أدريان، واعتبرت أحكامها سديدة. كان ذلك، كما أدركت الآن، واضحا من كل وجهة، سواء كانت فلسفية أو غيرها. أو بالأحرى، إن رأيها المبدئي فيَّ، حين استحسنت بعضا من كتبي وتسجيلاتي، حين أحبتني إلى درجة تكفي لأن تصطحبني معها إلى البيت كان سديدا. ظننت أني أستطيع أن أتغلب على الازدراء وأن أحول الندم إلى شعور بالذنب، ثم يُغفر لي. أغرتني بطريقة ما فكرة أني أستطيع أن أستأصل معظم وجودنا المنفصل عن بعضنا، أستطيع أن أقطع وألصق الشريط المغناطيسي المسجل عليه حياتنا، أن أعود إلى الوراء إلى تقاطع الطرق وأن أسير على الطريق التي يسير عليها قليلون، أو بالأحرى لا يسير عليها أحد مطلقا. بدلا من ذلك قمت فقط بترك البديهة العامة ورائي. يا لك من أحمق عجوز، قلت لنفسي. ولا مثيل بين الحمقى لأحمق عجوز، هذا ما اعتادت أن تتمتم به أمي الميتة منذ زمن بعيد حين كانت تقرأ قصصا في الصحف عن مسنين يقعون في حب نساء صغيرات، ويتخلون عن زواجهم لقاء ابتسامة متكلفة، وشعر مُصنَّع. لا أقول إنها كانت تعبر عن الأمر بتلك الطريقة. ولا أستطيع حتى أن أتعذر، بأني كنت أفعل ما يفعله بابتذال شيوخ في عمري. لا، كنت عجوزا أحمق أكثر غرابة، يزرع آمالا مثيرة للشفقة بالحب في شخص

هو الأبعد احتمالا في العالم.

الأسبوع التالي كان أحد الأسابيع الأشد وحدة في حياتي. بدا لي أنه لا شيء هناك للتطلع إليه. كنت بمفردي مع صوتين يتحدثان بوضوح في رأسي: مارغريت تقول، «توني، أنت الآن بمفردك»، وفيرونكا تقول: «أنت لا تفهم الأمر... لم تفهمه قط، ولن تفهمه أبدا». وإدراكي أني إن هاتفت مارغريت فإنها لن تشمت، إدراكي أنها سوف توافق بسعادة على لقاء آخر من لقاءات الغداء القصيرة، وأننا سوف نتصرف كما كنا في السابق جعلني أشعر بوحدة أشد. من الذي قال إنه كلما طالت حياتنا قل إدراكنا للأمور؟

مع ذلك، كما أميل إلى تكرار ذلك، أمتلك غريزة ما للبقاء على قيد الحياة، لحفظ الذات. والإيمان أنك تمتلك هذه الغريزة يعادل تقريبا امتلاكك لها، لأن ذلك يعني أنك تتصرف بالطريقة نفسها. وهكذا بعد مدة، استجمعت قواي. أدركت أن علي أن أعود إلى سابق عهدي قبل أن يستحوذ علي ذلك التوهم السخيف الخرف. علي أن أهتم بأموري، مهما كانت تلك الأمور، فضلا على ترتيب الشقة وإدارة المكتبة في المستشفى المحلي. أوه نعم، وفي إمكاني أن أركز مرة أخرى على استعادة ممتلكاتي.

«العزيز جاك»، كتبت: «أتساءل إن كان في إمكانك أن تزودني بشيء أكثر عونا لي في فهم فيرونكا. أخشى أني مازلت أجدها بدرجة الغموض نفسها التي كانت عليها في الماضي. حسنا، هل نتعلم؟ على أي حال، لم يذب بعد الطوف الجليدي بشأن يوميات صديقنا التي تركتها أمك لي في وصيتها. هلا أشرت

علي بنصيحة أخرى بهذا الشأن؟ أيضا، هناك لغز صغير آخر. قبل عدة أسابيع كان لي لقاء لطيف مع ف على الغداء في وسط المدينة. ثم طلبت مني أن نلتقي عند خط القطارات الشمالي في عصر أحد الأيام. يبدو أنها أرادت أن تريني مجموعة ما في الرعاية المجتمعية، ثم غضبت حين أرتني إياهم. هل في إمكانك أن تلقي الضوء على هذا الأمر؟ آمل أن تكون أمورك جيدة. تحياتي، توني. و».

أملت ألا تبدو المودة التي أظهرتها زائفة كما بدت لي. ثم كتبت للسيد غانيل، طالبا منه أن يفعل شيئا نيابة عني حيال وصية السيدة فورد. أخبرته - بثقة - أن تعاملاتي الأخيرة مع ابنة الموصية أوحت بشيء من عدم الاستقرار، وأني أعتقد الآن أنه من الأفضل أن يخاطب شخص مهني السيدة ماريوت ويحثها على اتخاذ قرار عاجل بشأن القضية.

سمحت لنفسي بوداع خاص فيه حنين إلى الماضي. فكرت في فيرونكا وهي ترقص وشعرها منسدل على وجهها كله. فكرت فيها وهي تعلن لعائلتها: «سوف أصطحب توني إلى غرفته»، وهي تهمس في أذني أن علي أن أنام نومة الأشرار.

كتب السيد غانيل قائلا إنه سيقوم بما طلبت منه. لم يرد الأخ جاك مطلقا.

لاحظت - حسنا، كنت سألاحظ - أن القيود على الاصطفاف تطبق فقط بين الساعة العاشرة ومنتصف النهار. على الأرجح لثني المتنقلين عن القيادة إلى تلك الأماكن في المدينة، بحيث يتركون سياراتهم في النهار، ويتابعون مستخدمين مترو الأنفاق.

لهذا قررت أن أقود سـيارتي هذه المرة، من طراز فولكسـفاغن بولو إطاراتها سـتتحمل زمنا أطول من إطارات سيارة فيرونكا. بعـد سـاعة أو نحو ذلـك من المعانـاة على الطريق الشـمالي الدائري، وجدت نفسـي في الموقع، وأوقفت سـيارتي في المكان الذي كنا فيه من قبل، كنت مواجها شـارعا فرعيا منحدرا بعض الشيء، وكانت الشمس في أواخر عصر ذلك اليوم تلتقط الغبار على شـجيرة جنبة الرباط. كانت مجموعات من أطفال المدارس عائديـن إلى البيـت، الأولاد يرتدون قمصانـا أخرجوها خارج بناطيلهم، والبنات يرتدين تنانير قصيرة بشـكل مستفز، العديد منهـم يتحدثون بهواتفهـم النقالة، وبعضهم يـأكل، وقليل منهم يدخن. حين كنت في المدرسة كانوا يقولون لنا إنه مادمنا نرتدي الزي الرسـمي للمدرسة علينا أن نتصرف بطريقة تعكس صورة إيجابية عن المؤسسة. لهذا يُمنع الأكل والتدخين في الشارع، وإن ضبط أحد وهو يدخن فسـوف يضرب. كما يمنع الاختلاط مع الجنس الآخر، كانت مدارس البنات مرتبطة بمدارسنا والمدارس القريبـة في الحي، كانت تصرف طالباتهـا قبل مدارس الأولاد بخمس عشرة دقيقة، بحيث تمنحهن الوقت الكافي لكي يختفين عن أنظار أقرانهن الذكور من المتصيدين والشـهوانيين. جلست هناك أتذكر كل ذلك، مسجلا الفروق دون أن أصل إلى أي نتائج. فلم أمدح ولم أدن. كنت لامباليا، عطلت حقي بالأفكار والأحكام. كل ما همني هو لماذا تم إحضاري إلى هذا الشارع منذ أسبوعين لهذا جلست ونافذة السيارة مفتوحة وانتظرت.

بعد سـاعتين أو نحو ذلك، أصابني اليـأس. عدت في اليوم

التالي واليـوم الذي تلاه، من دون نجاح. ثم قدت السـيارة إلى الشـارع الذي تقـع فيه الحانـة والمحل، وأوقفت سـيارتي في الخارج. انتظرت، توجهت إلى المحل واشـتريت بعض الأشـياء، انتظرت مدة أطول، عدت إلى البيت. لم أشعر مطلقا بأني أضيع وقتي، بـل كان العكس من ذلك تماما، أن هذا ما علي أن أكرس وقتي لـه. وعلى أي حال تبـين لي أن المحل مفيـد للغاية. كان واحـد من تلك المحلات التي تبيع كل شـيء من الأطعمة المعلبة إلى المعدات. في أثناء تلك الفترة اشتريت خضراوات ومسحوقا لغسـالة الصحون، شـرائح اللحم وورق تواليت، استخدمت آلة الصرف وكدست أكثر من حاجتي من الكحول. بعد الأيام القليلة الأولى صاروا ينادونني «أيها الصديق».

فكرت في لحظة ما أن أتصـل بدائرة الخدمات الاجتماعية فـي المنطقة وأسـألهم إن كان هناك بيت للرعايـة الاجتماعية يؤوي رجلا مغطى بأكمله بالشـارات، لكن اسـتبعدت أن أصل إلى أي نتيجة. كنت سـوف أخفق عند أول سؤال لهم: لماذا تريد أن تعـرف؟ لم أعرف لماذا أردت أن أعرف. لكن كما أقول عادة، لا أشـعر بالعجلة. إنه - نوعـا ما - لم يكن يضغط على دماغي لاسـتدعاء الذكرى. لـو لم أضغط على - مـاذا؟ - الزمن، إذن لظهر إلى السطح شيء ما، ربما حتى حل ما.

فـي الوقت المناسـب تذكرت كلمات كنت قد سـمعتها «لا يا كن، لن نذهب إلـى الحانة اليوم. ليلة الجمعة هي ليلة الحانة». وهكذا في يوم الجمعة التالي قدت سيارتي هناك وجلست حاملا صحيفـة في حانة ويليام الرابـع. كانت واحدة من تلك الحانات

التي صـــارت خاصة بالطبقة الراقية بفعل الضغط الاقتصادي. فقد كانت قائمة الطعام تضع أســـعارا باهظة على هذا الصنف وذاك، وكان هناك تلفاز يبث بهدوء قناة أخبار الـ «بي. بي. سي»، وألـــواح معلقة في كل مكان: واحد منهـــا يعلن عن ليلة الامتحان القصير الأســـبوعية، وآخر عن نادي الكتاب الشهري، وثالث عن جـــدول الأحداث الرياضية القادمة في التلفـــاز، بينما كان رابع يعرض حكمة اليوم، نقلت بلا شـــك من كتاب يجمع بين الظرف والحكمة. احتســـيت ببطء أنصافا من الكؤوس، بينما كنت أحل الكلمات المتقاطعة، لكن لم يأت أحد.

في الجمعة التالية، فكرت: يمكنني أيضا أن أتناول عشائي هنا، فطلبت ســـمك النازلي باهظ السعر مع البطاطا المقلية المقطعة باليد وكأســـا كبيرة من الشـــراب. لم يكن الطعام سيئا أبدا. ثم، في الجمعـــة الثالثة، حين كنت أتناول البينه مع جبن الغرغنزوله وصلصة الجوز، دخل الرجل المشـــوه برفقة الرجل ذي الشاربين. جلسا على مقعديهما إلى طاولة كأنهما معتادان على ذلك، حيث جلب لكل منهما عامل البار، من الواضح أنه معتاد على طلبَيْهما، نصف كأس من الشـــراب، بدآ يشربان بشـــكل متأمل. لم ينظرا حولهما، ولـــم يحاولا النظر في عيني أحد، وفي المقابل لم ينتبه إليهما أحد. بعد نحو عشـــرين دقيقة دخلت امرأة سوداء عليها سمات الأمومة ودفعت الحساب ثم اصطحبت الرجلين برفق إلى الخـــارج. راقبت فقط وانتظرت. كان الزمن إلى جانبي، نعم لقد كان كذلك. أحيانا تعبر الأغاني عن الحقيقة بالفعل.

صرت الآن زبونا دائما في الحانة. لم أنضم إلى نادي الكتاب

ولم أشـــارك في ليلة الامتحان القصير، لكن كنت أجلس بانتظام إلى طاولة صغيـــرة بالقرب من النافذة وأتفحص قائمة الطعام، مـــا الذي كنت آمل بـــه؟ على الأغلب بأن أبـــدأ حديثا مع عامل الرعاية الشاب الذي كنت شـــاهدته يرافق الرجال الخمسة في عصـــر ذلك اليـــوم الأول، أو ربما حتى مع الرجل ذي الشـــارات الذي بدا ألطفهم عِشْرة وأكثرهم أُنسة. كنت صبورا من دون أن أشـــعر بأني كذلك. توقفت عن عد الساعات، ثم، في أول مساء أحد الأيام، رأيت خمستهم يقتربون معا، وتقودهم المرأة نفسها. بطريقة ما لم أشـــعر حتى بالدهشـــة. دخـــل الرجلان الدائمان إلـــى الحانة، بينما دخل الثلاثة الآخرون إلى المحل برفقة عاملة الرعاية.

نهضت تاركا قبعتي وصحيفتي على الطاولة كإشارة مني إلى عودتي. عند مدخل المحل تناولت ســـلة بلاستيكية صفراء اللون وتجولت ببطء في المحـــل. عند طرف أحد الممرات كان ثلاثتهم متحلقين حول مجموعة من عبوات لســـائل غســـيل، يناقشـــون بجديـــة أيا منها يشـــترون. كان المكان ضيقا، فقلت بصوت عال: «اعذرونـــي» وأنا أقترب منهم. قام الرجل المضحك الذي يرتدي نظارات بحشـــر نفســـه فورا بحيث صار وجهـــه مواجها رفوف الأدوات المنزليـــة وخيـــم الصمت على ثلاثتهـــم. بينما كنت أمر حدق في وجهي رجل الشـــارات. «مســـاء الخير»، قلت مبتسما. واصل النظر، ثم انحنـــى برقبته. توقفت عند ذلك الحد وعدت إلى الحانة.

بعد بضع دقائق انضم ثلاثتهم إلى الاثنين اللذين كانا يشربان.

توجهت عاملة الرعاية إلى عامل المطعم وطلبت. أدهشني أنهم كانوا يتصرفون بصخب وطفولية في الشارع، بينما كانوا خجولين متهامسين في المحل والحانة. جلبت مشروبات غير مسكرة للقادمين الجدد. ظننت أني سمعت العبارة «عيد ميلاد» لكن قد أكون مخطئا. قَرَّرْتُ أنه حان الوقت لأطلب الطعام. كانت طريقي إلى عامل المطعم ستأخذني إلى مكان قريب منهم. لم تكن لدي خطة معينة. كان الثلاثة الذين قدموا من المحل مازالوا واقفين واستداروا قليلا حين اقتربت. ألقيت بمرح تحية «مساء الخير» للمرة الثانية على رجل الشارات الذي رد علي بالطريقة السابقة. كان في تلك اللحظة الرجل المضحك يقف أمامي وحين كنت على وشك المرور به توقفت ونظرت إليه بشكل صحيح. كان في الأربعين من عمره تقريبا، ويزيد قليلا طوله عن ست أقدام، باهت جلده ويرتدي نظارات بعدسات سميكة. كان في استطاعتي أن أشعر بأنه أراد أن يدير ظهره مرة أخرى. لكن بدلا من ذلك، قام بشيء غير متوقع. خلع نظاراته وحدق في وجهي. كانت عيناه بنيتين رقيقتين.

من دون أن أفكر تقريبا قلت له بهدوء: «أنا صديق لماري».

راقبته حين أخذ في البداية يبتسم، ثم يُذعر. استدار، وأصدر أنينا مكتوما، واقترب بتثاقل من المرأة الهندية وأمسك بيدها. واصلت طريقي وألقيت بنفسي على كرسي وأخذت أتمعن في قائمة الطعام. بعد لحظة أو لحظتين، صرت واعيا للمرأة السوداء تقف بجانبي.

«آسف»، قلت. «أرجو أني لم أرتكب خطأ ما».

«لست متأكدة»، أجابتني. «ليس من الجيد أن تجفله. خاصة الآن».

«التقيـت به مـرة قبل ذلك، مع ماري حـين أتت إلى هنا في عصر أحد الأيام. أنا صديق لها».

نظـرت إلـي، كأنها كانت تحـاول أن تقيم حوافـزي ودرجة صدقي. «إذن سوف تفهم»، قالت بهدوء: «أليس كذلك؟».

«نعم، أفهم».

ومـا كان فـي الأمر هو أنـي فهمت. لم أكن فـي حاجة إلى التحدث إلى رجل الشارات أو عامل الرعاية. الآن عرفت.

رأيته فـي وجهه. ليس غالبا ما يكون صحيحا، أليس كذلك؟ على الأقل، ليس بالنسـبة إلي. نسـتمع لما يقوله الناس، نقرأ ما يكتبونـه - هذا هو دليلنا، هذا هو توثيقنا. لكن إن خالف الوجه كلمات المتكلم، نتحقق من الوجه. نظرة مراوغة في العين، ظهور احمرار، رعشـة في عضلة الوجه لا يسـتطيع التحكم فيها، ثم نعـرف. ندرك النفاق أو الادعـاء الزائف، وتظهر الحقيقة جلية أمامنا.

لكن هذا الأمر مختلف، أكثر بسـاطة. لم يكن هناك تخالف، رأيته ببسـاطة في وجهه، في العينـين، لونهما وتعبيراتهما، في الخدين، شحوبهما وعظامهما. جاء التوثيق من طوله، والطريقة التـي بنـت فيها عظامه وعضلاتـه ذلك الطـول. كان هذا ابن أدريـان. لم أكن في حاجة إلى شـهادة ميلاد أو فحص الحمض النووي، لقد رأيته وشعرت به. وبالطبع تطابقت التواريخ، سيكون تقريبا في هذا العمر الآن.

أعتــرف أن أول ردة فعل لــي كانت مغرقة فــي الأنانية. لم أســتطع أن أتفــادى تذكر ما كتبته في ذلك الجزء من رســالتي الموجهــة إلى فيرونكا: «إن المســألة تتعلق فقط بقدرتك على أن تحملي قبل أن يكتشف أنك مملة.» لم أكن حتى أعني ما قلت في ذلك الحين، كنــت فقط أتخبط، محاولا إيجاد طريقة لإيلامها. فــي الحقيقة، على مدى الفترة التي كنــت فيها أواعد فيرونكا، وجدت فيها العديد من الأشــياء: فاتنــة، غامضة، رافضة، لكن لــم تكن مملة أبدا. وحتى في تعاملاتــي الأخيرة معها، رغم أن هذه الصفات قد تكون حديثة: ســاخطة، عنيدة، متغطرسة، بيد أنهــا لاتزال، بطريقة ما، فاتنــة، لم أجدها مملة قط. إذن كانت الصفات زائفة بقدر ما كانت مؤلمة.

لكن ذلــك كان نصف الأمر. حين كنت أحــاول أن أدمرهما، كتبت: «يأمل جزء منــي أن تنجبا طفلا، لأني أؤمن بقوة بانتقام الزمن. لكن الانتقام يجب أن يقع على من يستحقونه، أي عليكما الاثنين». ثم تابعت: «ولهذا لا أتمنى لكما ذلك. ســوف يكون من غيــر الإنصاف أن يبتلــى جنين بريء بإمكان اكتشــافه أنه كان ثمرة من صلبيكما، مع اعتذاري عن لغتي الشــعرية». الندم، كما يشــير أصل الكلمة، هو فعل العض مرة أخرى. هذا ما يفعله بك الإحســاس بالندم. تخيل قوة العضة حــين أعيد قراءة كلماتي. تبــدو مثل لعنة قديمة نســيت أني حتى نطقتهــا. بالطبع أنا لا أؤمــن - لم أؤمن - باللعنات. أي بكلمات تؤدي إلى أحداث. لكن فعل تســمية شيء ما بذاته يحدث فيما بعد - تمني شر محدد، ويحدث ذلك الشــر - هذا لايــزال يرتعش منــه الذين يؤمنون

بعوالم أخرى. حقيقة أن ذاتي الشـابة التي نطقت اللعنة وذاتي المسنة التي شهدت عاقبتها تشـعران بشكل مختلف تماما، كان هـذا خارجا عن الموضـوع إلى حد القبح. لو، قبـل أن يبدأ كل ذلـك، كنـت أخبرتني أن أدريان، بدلا من أن يقتل نفسـه، تزوج من فيرونـكا مخالفا بهذا للحقائق، وأنهما أنجبا طفلا، ثم ربما أطفالا آخريـن، ثم أحفادا، لأجبت: هذا جيد، كلٌ وحياته، أنتما مضيتما في طريقكما، وأنا مضيت في طريقي، لا ضغينة بيننا. والآن تلك الكليشـهات البليدة خالفت الحقيقة الراسـخة عما حـدث. انتقام الزمن يقع على الجنين البـريء. فكرت في ذلك الرجل المسـكين المدمر وهو يلتفت بعيدا عني في المحل ويحشر وجهـه في لفات مناشـف المطبخ الورقيـة والعلب الضخمة من مناديـل التواليت المبطنة لكي يتفادى وجودي. حسـنا، لقد كان حدسـه صحيحا، كنت رجـلا يجب أن تدار الظهـور له. لو أن الحياة فعلا تكافئ الجدارة، إذن فإني أستحق أن يتم تجنبي.

قبل بضعـة أيام فقط، كنت أعلل نفسـي بخيـال مبهم عن فيرونـكا، بينما كنت في أثناء ذلك أعتـرف بأني لم أكن أعرف شـيئا عن حياتها خلال السـنين الأربعين أو أكثر منذ أن رأيتها آخر مرة. الآن لدي بعض الإجابات عن أسـئلة لم أسألها. كانت قد حملت من أدريان - من يعرف؟ - وربما أثرت صدمة انتحاره على الطفل في رحمها. أنجبت ولدا شُـخِّص في مرحلة ما على أنه... ماذا؟ على أنه لا يسـتطيع أن يكون فاعلا بشـكل مستقل في المجتمع، حيث أضحى في حاجة إلى دعم مسـتمر، عاطفي ومادي. تسـاءلت متى كان ذلك التشخيص. هل كان مباشرة بعد

الــولادة، أم أنه كان هناك انتظار مُســكن لبضع ســنوات كانت أثناءهــا فيرونكا تجــد راحة فيما تم إنقاذه مــن الحطام؟ لكن بعد ذلك، كم مر من وقت وهي تضحي بحياتها من أجله، ولعلها كانت تقوم بعمل جزئي كريهٍ حين كان في مدرســة للاحتياجات الخاصة؟ ثــم على الأغلب أن حجمه صار أكبر ورعايته أصعب، وفــي النهاية صــار العناء لا يحتمل، وســمحت أن يلتحق بأحد مراكز الرعاية. تخيل الإحســاس الذي يخلفه ذلك الأمر، تخيل الخســارة، الإحســاس بالإخفــاق، الذنب. وها أنــا هنا، أتذمر لنفســي حين تنســى ابنتي أحيانا أن ترســل لي إيميلا. تذكرت أيضــا الأفكار الجاحدة التــي خطرت لي منــذ أن التقيت مرة أخــرى بفيرونكا أول مرة على جســر وبلي. فكرت أنها بدت في حالــة رثة وغير مرتبة بعض الشــيء، فكــرت أنها كانت صعبة، عدوانية، منفرة. فــي الحقيقة كنت محظوظا أنها منحتني ذلك الوقت من النهار. وتوقعت منها أن تســلمني يوميات أدريان؟ لو كنــت مكانها، لكنت على الأغلب أحرقتها أيضا، كما أعتقد الآن أن ذلك ما قامت به.

لــم يكن هنــاك من أقول له هذا - لن يكــون هناك أحد لمدة طويلــة من الزمن. كما قالــت مارغريت، كنت بمفردي - وهكذا يجدر بي أن أبقى. خاصــة لأنه كان هناك جزء كبير من حياتي علــي أن أعيد تقييمــه، ولا يرافقني في ذلــك إلا الندم. وبعد أن أعيــد التفكير في حياة فيرونكا وشــخصيتها، علي أن أعود إلى ماضيَّ وأتعامل مع أدريان. صديقي الفيلســوف الذي حدق فــي الحياة وقرر أن أي فرد مســؤول مفكر يمتلك الحق في أن

يرفض هذه الهبة التي لم يطلبها، وفعله النبيل أكد مرة أخرى مع مرور كل عقد من الزمن التنازل والضآلة التي تتألف منها معظم حيواتنا. «معظم حيواتنا»: حياتي.

إذن هــذه الصورة عنه - هــذا التوبيخ الحي الميت لي ولبقية وجودي - انقلبت الآن. كنت أنا وألكس قد اتفقنا على أنه «انتحار من الطراز الأول، من الدرجة الأولى». أي صورة عن أدريان لدي الآن عوضا عن تلك الصورة؟ شخص سبب في حمل حبيبته، لم يستطع أن يواجه العواقب، واختار «الطريقة الأسهل للخروج من المــأزق»، كما يقولون عادة. لا أعني أن أمر الانتحار ســهل، هذا الإصرار الأخير على الفردية ضد العمومية الساحقة التي تعمل علــى قمعه. ولكن الآن علي أن أقيم أدريــان من جديد، وأحوله من شخص رافض مستشــهد بكامو يمثل الانتحار بالنسبة إليه القضية الفلســفية الحقيقية إلى... ماذا؟ ليس أكثر من نســخة من روبسون الذي «لم يكن مادة مناسبة لفكرة إيروس وثاناتوس»، كمــا عبر عنها ألكــس، حين قام ذلك التلميذ فــي صف العلوم السادس غير المميز حتى تلك اللحظة بمغادرة هذا العالم بعبارة «آسف يا أمي».

فــي ذلك الحين، وضعنا تخمينات حول هوية فتاة روبســون، تراوحت من عذراء محتشمة إلى مومس مصابة بمرض تناسلي. لم يفكــر أي منا في الطفل، أو المســتقبل. الآن، وللمرة الأولى، تســاءلت عما يكون قد حدث لفتاة روبســون ولطفلهما. ستكون الأم فــي مثل عمري، وعلى أغلب الظن مازالت على قيد الحياة، بينما ســيكون الطفل قد شارف الخمسين من عمره. هل مازال

الطفل يعتقد أن «الأب» مات في حادث؟ لعله أرسل للتبني وكبر وهو يعتقد أنه شخص مرفوض. لكن في هذه الأيام يحق للمتبنين أن يبحثوا عن أمهاتهم اللاتي ولدنهن. تخيلت أن ذلك حدث وتخيلت لم الشمل المربك والمؤثر الذي تبع ذلك. شعرت في نفسي بالعوز، حتى بعد مضي كل هذا الوقت، الحاجة للاعتذار لفتاة روبسون عن الطريقة اللامبالية التي ناقشنا بها أمرها، من دون أن نفكر في ألمها وعارها. أراد جزء مني أن يتواصل معها ويطلب منها أن تغفر لنا أخطاءنا التي ارتكبناها منذ زمن بعيد، حتى رغم أنها لم تكن تعرفنا في ذلك الوقت.

لكن التفكير في روبسون وفتاة روبسون كان فقط طريقة لتفادي الحقيقة بشأن أدريان. كان روبسون في الخامسة عشرة، أو السادسة عشرة؟ وكان لايزال يعيش في البيت مع والديه اللذين بلا شك لم يكونا متحررين. وإن كانت الفتاة دون سن السادسة عشرة، فقد تكون في الأمر تهمة بالاغتصاب أيضا. لهذا لم يكن هناك وجه للمقارنة. أدريان كبر وترك البيت وكان أكثر ذكاء بكثير من روبسون المسكين. بالإضافة إلى ذلك، في تلك الأيام، إن أنت تسببت في حمل فتاة ورفضت أن تُجهض نفسها، فإنك تتزوجها، كانت تلك هي القواعد. بيد أن أدريان لم يستطع حتى أن يواجه هذا الحل التقليدي. «هل تعتقد أن السبب في ذلك هو أنه كان أكثر ذكاء من اللازم؟». سألتني أمي بشكل مستفز. لا، لا علاقة للأمر بالذكاء، فضلا عن الشجاعة الأخلاقية. فهو لم يرفض بنبل هبة وجودية، بل كان خائفا من عربة الأطفال في الرواق.

ماذا عرفت عن الحياة، أنا الذي عاش حياته بحذر؟ الذي لم يكسب أو يخسر، بل سمح للحياة بأن تحدث له فقط؟ الذي كان لديه الطموحات ورضي بسرعة بعدم تحقيقها؟ الذي تفادى أن يتعرض للألم وأسمى ذلك القدرة على البقاء على قيد الحياة، الذي دفع فواتيره وبقي على علاقة طيبة مع كل شخص بقدر ما كان ذلك ممكنا، الذي سرعان ما صارت النشوة واليأس بالنسبة إليه مجرد كلمتين قرأهما ذات مرة في الروايات؟ الذي لم تصبه قط توبيخاته الذاتية بألم حقيقي؟ حسنا، كان هناك كل ذلك للتفكر فيه، في حين كنت أتحمل نوعا خاصا من الندم، أتفكر في ألم وقع بعد طول انتظار على شخص كان دائما يعتقد أنه يعرف كيف يتفادى التعرض للألم، ووقع الألم من أجل هذا السبب بالذات.

«اخرج!» هذا ما طلبته مني فيرونكا بعد أن صعدت على الرصيف بسرعة عشرين ميلا في الساعة. الآن أعطيت الكلمة معنى أوسع: اخرج من حياتي، لم أرغب قط في أن تقترب منها في الأصل. كان يجدر بي ألا أوافق على لقائك، فضلا عن تناول الغداء معك واصطحابك لترى ابني. اخرج، اخرج!

لو كنت أعرف عنوانا لها، لكتبت لها رسالة حقيقية. عنونت إيميلي بـ «اعتذار»، ثم غيرته بحيث كتبت العنوان بأحرف كبيرة، لكنه بدا كأنه يصيح أكثر من اللازم، لهذا غيرته مرة أخرى إلى وضعه الأصلي. لم يكن في وسعي إلا أن أكون مباشرا.

عزيزتي فيرونكا،

أعرف أني على الأغلب آخر شخص تودين أن تسمعي منه،

لكن أرجو أن تقرئي هذه الرسالة حتى النهاية. لا أتوقع منك أن تردي عليها. لكني أمضيت بعض الوقت وأنا أقيم الأشياء من جديد، وأود أن أعتذر لك. لا أتوقع منك أن تحسِّني الصورة التي تحملينها عني، لكن على أي حال لا يمكن أن تكون صورتي أسوأ. كانت تلك الرسالة آلتي كتبتها لا تغتفر. كل ما أستطيع قوله هو أن كلماتي الشنيعة كانت وليدة اللحظة. وكانت بالنسبة إلي صدمة حقيقية حين قرأتها من جديد بعد مرور كل تلك السنين.

لا أتوقع منك أن تسلميني يوميات أدريان. إن كنت قد أحرقتها فهذه نهاية الموضوع. إن لم تحرقيها، إذن من الواضح، حيث إن أبا ابنك كتبها، إنها تخصك. ما يحيرني هو سبب ترك والدتك اليوميات لي في الأصل، لكن ذلك لا يهم.

أعتذر لأني كنت مزعجا للغاية. كنت تحاولين أن تريني شيئا، لكني كنت أحمق جدا إلى درجة أني لم أفهم. أتمنى لك ولابنك حياة هادئة، بقدر ما هو ممكن في مثل هذه الظروف. وإن كان في أي وقت في استطاعتي أن أفعل شيئا لكليكما، أرجو ألا تترددي في التواصل معي.

المخلص، توني.

كان ذلك أفضل ما في وسعي فعله. لم تكن بالصورة التي أردتها، لكن على الأقل عنيت كل كلمة قلتها. ليست لدي خطة خفية. لم يكن لدي أمل في نتيجة ما. لا يوميات، ولا انطباع طيب لفيرونكا عني، ولا حتى قبولها لاعتذاري.

لا أستطيع أن أحدد إن كان شعوري أفضل أو أسوأ بعد أن أرسلت الرسالة. لم أشعر بالكثير. منهك، مفرغ من مشاعري.

لم تكن لدي الرغبة في أن أعلم مارغريت بما حدث. فكرت أكثر في سوزي، والحظ الذي ينعم به أي والد حين ينجب طفلا بأربعة أطراف ودماغ عادي وتكوين عاطفي يمكن الطفل، الفتاة، المرأة من عيش أي نوع من الحياة. أدعو أن تكون طبيعيا، كما تمنى شاعر ذات مرة لطفل حديث الولادة.

مضيت في حياتي. أوصيت بكتب للمرضى والمتعافين والمحتضرين. قرأت أنا نفسي كتابا أو كتابين. أخرجت ما يحتاج إلى إعادة تدوير. خاطبت السيد غانيل وطلبت منه ألا يتابع قضية اليوميات. في أواخر عصر أحد الأيام، تملكتني نزوة، فقُدت سيارتي حول الطريق الدائري الشمالي وتسوقت بعض الأغراض وتناولت عشائي في حانة وليام الرابع. سألوني إن كنت غائبا في إجازة. في المحل قلت نعم، في الحانة قلت لا. بدا أنه لم يكن لإجاباتي أي أهمية. لم أفعل الكثير. فكرت في الأشياء التي حدثت لي على مدى السنين، وكيف أني فعلت القليل.

في البداية افترضت أنه إيميل قديم، أعيد إرساله عن طريق الخطأ. لكن كان مازال عنواني متروكا هناك: «اعتذار». تحت العنوان كانت رسالتي غير ممسوحة. كان ردها التالي: «مازلت لا تفهم الأمر. لم تفهمه ولن تفهمه أبدا. لهذا توقف حتى عن المحاولة».

تركتُ الرد في وارد بريدي وأعدت قراءته أحيانا. لو لم أكن قد عزمت أمري على الحرق ونثر الرماد، لاستخدمت العبارة كنقش لضريحي على كتلة من الصخر أو الرخام: «توني وبستر... لم يفهم الأمر أبدا». لكن سيكون ذلك ميلودراميا جدا، وحتى مثيرا

للشفقة على الذات. ماذا عن «إنه بمفرده الآن»؟ ذلك أفضل، أكثر صدقا. أو ربما سأستقر على عبارة: «كل يوم يوم الأحد».

أحيانا، كنت أرتاد المحل والحانة. كانت هناك أماكن كنت أشعر فيها دائما بإحساس بالسكينة، على غرابة ما أقوله، أيضا، إحساس بالهدف، لعله آخر هدف حقيقي في حياتي. كما هي الحال في السابق، لم أعتقد قط أني كنت أضيع وقتي. ربما هذا ما يمكن أن أكرس وقتي له. كما أن المكانين كانا دافئين، على الأقل أكثر دفئا من أماكن مثلها في المنطقة التي كنت أعيش فيها. لم تكن لدي خطة: وما هو الجديد في الأمر هنا؟ لم تكن لدي «خطة» لسنوات. وإحياء عاطفتي - إن كانت هذه هي الحال - نحو فيرونكا بالكاد يمكن أن يعتبر خطة. هو أكثر منه اندفاع مرضي وجيز، ملحق لتاريخ مختصر من المهانة.

في أحد الأيام، قلت لعامل المطعم، «هل تعتقد أن في إمكانك أن تصنع لي شرائح بطاطس رقيقة كنوع من التغيير؟».

«ماذا تقصد؟».

«أنت تعرف، كما الأمر في فرنسا، الشرائح الرقيقة».

«لا، لا نصنعها هنا».

«لكن تقول قائمة الطعام إن شرائح البطاطس هنا تقطع بواسطة اليد».

«نعم».

حسنا، ألا يمكنكم تقطيعها لتكون أكثر رقة؟».

توقفت للحظات دماثة عامل المطعم المعتادة. نظر إلي كأنه لم يكن متيقنا إن كنت متحذلقا أو غبيا أو على الأغلب هما معا.

«شرائح بطاطس مقطعة بواسطة اليد تعني شرائح بطاطس سميكة».

«لكن إن كنتم تقطعونها باليد، ألا يمكنكم أن تقطعوها بحيث تكون أكثر رقة؟».

«نحن لا نقطعها. فهي تصلنا بهذا الشكل».

«أنتم لا لا تقطعونها في الحانة؟».

«هذا ما قلته».

«إذن ما تسمونه شرائح بطاطس مقطعة بواسطة اليد ما هي إلا شرائح بطاطس قطعت في مكان آخر، وعلى أغلب الظن بواسطة آلة».

«هل أنت من البلدية أو شيء من هذا القبيل؟».

«على الإطلاق لا. أنا فقط محتار. لم أدرك أن شرائح بطاطس مقطعة بواسطة اليد تعني سميكة، وليس، حتما مقطعة بواسطة اليد».

«حسن، أنت تعرف الآن».

«أعتذر. لكني لم أفهم الأمر».

رجعت إلى طاولتي وانتظرت عشائي.

ثم، من دون مقدمات، دخل خمستهم، برفقة عامل الرعاية الشاب الذي رأيته من نافذة سيارة فيرونكا. توقف رجل الشارات حين مر بالقرب من طاولتي، ومنحني تلك الانحناءة من الرقبة. كانت شارتان على خوذته التي تشبه خوذة صائدي الأيل تجلجلان معا. تبعه الآخرون. حين رآني ابن أدريان، أدار بكتفه كأنه كان يبعدني - ويبعد الحظ النحس - عنه. توجه خمستهم

إلى الجدار البعيد ولكن لم يجلسوا. توجه عامل الرعاية إلى البار وطلب شرابا.

تم إحضار سمك النازلي وشرائح البطاطس المقطعة بواسطة اليد، وقد قدم هذا الأخير في وعاء معدني مغطى بصحيفة. ربما كنت أبتسم لنفسي حين اقترب الشاب من طاولتي.

«هل تمانع في أن أتحدث إليك؟».

«على الإطلاق لا».

أشرت إلى الكرسي المقابل لي. حين جلس شاهدت من فوق كتفه خمستهم وهم ينظرون إلي ممسكين بكؤوسهم من دون أن يشربوا.

«أنا تري».

«توني».

تصافحنا ونحن نرفع مرفقينا بطريقة خرقاء أملاها علينا وضع الجلوس. كان صامتا في البداية.

«هل لك بشريحة من البطاطس؟». قلت مقترحا.

«لا، شكرا».

«هل تعلم أنهم حين يدرجون شرائح بطاطس مقطعة بواسطة اليد على قائمة الطعام، فإن ذلك يعني أن شرائح البطاطس سميكة فقط، ولا تعني أنها فعلا مقطعة بواسطة اليد؟».

نظر إلي بالطريقة نفسها التي نظر إلي بها عامل المطعم.

«إن الأمر يتعلق بأدريان».

«أدريان»، قلت مكررا قوله. لماذا لم أتساءل عن اسمه؟ وماذا عساه بغير هذا الاسم أن يسمى؟».

«إن وجودك يزعجه».

«أنا آسف»، أجبت. «آخر ما أردته هو أن أزعجه. لا أريد بعد ذلك أن أزعج أي شخص آخر. أبدا». نظر إلي كأنه ارتاب أن كلامي يحمل تهكما «حسنا. لن يراني مرة أخرى. سوف أفرغ من طعامي وأغادر، ولن يراني أحد منكم مرة أخرى أبدا».

أومأ قائلا «هل تمانع في أن أسألك من أنت؟».

«من أنا؟ بالطبع لا أمانع. اسمي توني وبستر. قبل عدة سنين كنت صديقا لوالد أدريان. كنت معه في المدرسة. كنت أعرف أم أدريان، فيرونكا، أيضا. حسنا. ثم فقدنا التواصل ببعضنا. لكن التقينا مرات قليلة في الأسابيع الماضية. لا، لعل علي القول في الأشهر الماضية».

«أسابيع وأشهر؟».

«نعم»، قلت. «غير أني لن أرى فيرونكا مجددا أيضا. إنها لا ترغب في معرفتي بعد ذلك». حاولت أن يبدو كلامي واقعيا أكثر منه مثيرا للشفقة.

نظر إلي «أنت تدرك أننا لا نستطيع أن نناقش سجلات عملائنا. فهي مسألة تتعلق بالسرية».

«بالطبع».

«لكن ما قلته منذ لحظة غير منطقي».

فكرت في ذلك. «أوه، فيرونكا، نعم، أنا آسف. أذكر أنه - أدريان - ناداها باسم ماري. أفترض أن هذا هو الاسم الذي تستخدمه حين تكون معه. لكن عرفتها - أعرفها - باسم فيرونكا».

كان في إمكاني أن أرى من فوق كتفه خمستهم وهم يقفون بقلق ويراقبوننا ومازالوا لم يحتسوا شرابهم.

«لو كنت صديقا لأبيه..».

« وأمه».

«إذن أظن أنك لا تفهم الأمر». على الأقل قال هذه الكلمات بشكل مختلف عن الآخرين.

«لا أفهم؟».

«ماري ليست أمه. ماري هي أخته. ماتت أم أدريان قبل نحو ستة أشهر. وقد أثر فيه ذلك جدا. لهذا كان... يعاني مشكلات أخيرا».

بشكل تلقائي أكلت شريحة من البطاطس. ثم أخرى. لم يكن هناك ملح كافٍ عليها. هذه فائدة شرائح البطاطس السميكة. فهي تحتوي على الكثير من البطاطس في داخلها. أما الشرائح الرقيقة فلا تكون مقرمشة من الداخل فقط، بل أيضا يكون الملح موزعا بشكل أفضل.

كل ما استطعت أن أقدم لتري هو يدي وتكرار لوعدي «وأرجو أن يتعافى. أنا متأكد أنك ستعتني به جيدا. يبدو أن جميعهم منسجمون مع بعضهم، خمستهم».

نهض «حسن. نحن نفعل ما في وسعنا، لكن نعاني من تخفيضات في الميزانية كل سنة».

قلت: «حظا طيبا لكم جميعا».

«أشكرك».

حين دفعت، تركت ضعف البقشيش الاعتيادي. على الأقل كانت تلك إحدى الطرق لأكون ذا نفع.

فيمـــا بعد، في البيــت، بعد أن فكرت في كل شـــيء، أدركت الأمر. فهمت. لماذا كانت يوميات أدريان في حوزة السـيدة فورد فـــي الأصل. لماذا كتبت: «ملاحظة: قد يبدو الأمر غريبا، ولكني أعتقد أن الأشـــهر الأخيرة من حياته كانت سـعيدة». ماذا كانت تعني عاملـــة الرعاية حين قالت: «خاصـــة الآن»؟ حتى ما عنت فيرونـــكا بقولها «ثمن الدم». وأخيرا ما الذي كان أدريان يتحدث عنه فـــي الصفحة التي سُـمح لي بأن أطلع عليهـــا. «إذن كيف يمكنـــك التعبير عن تراكم يحتوي على الأعـــداد الصحيحة ط، أ١، أ٢، س، ف؟». ثـــم معادلتان تعبران عـــن تراكمين محتملين. صـــار الأمر واضحا الآن. حرف أ الأول كان يشـــير إلى أدريان، والحرف الآخر كان يشـــير إلي، أنتوني، كما اعتاد أن يســـميني حـــين كان يريد مني أن أكون جادا. وط كان يشـــير إلى «طفل». طفـــل ولـــد لأم «الأم» - في عمر متقدم بشـــكل حرج - النتيجة كانت طفلا به خلل. الذي أصبح الآن في الأربعين من عمره، وقد أذهب الحزن عقله. والذي كان ينادي أخته باســـم ماري. نظرت إلى سلســـلة المســـؤولية. رأيت الحرف الأول من اســـمي هناك. تذكرت أني في رســـالتي الشـــنيعة حثثت أدريان أن يستشير أم فيرونكا. تذكرت من جديد الكلمات التي ســـوف تبقى هاجســـا لي إلى الأبد. كما ســـتبقى كلمـــات أدريان. «إذن، لو أن توني..». أدركت أني لا أستطيع أن أغير أو أصلح شيئا الآن.

أنـــت تمضي نحو نهايـــة الحياة، لا، ليس الحيـــاة بعينها، بل نهاية شـــيء آخر، نهاية أي إمـــكان للتغيير في تلك الحياة. تمنح لحظـــة طويلة من التوقف، وقتا كافيا لتســـأل الســـؤال التالي:

في أي شـــيء آخر أخطـــأت؟ فكرت في مجموعـــة من الصبية فـــي ميدان ترافالغار. فكرت فـــي امرأة ترقص للمرة الأولى في حياتها. فكرت فيما لم أســـتطع معرفته أو إدراكه الآن، وفي كل ما يمكن أن يعرف أو يـــدرك. فكرت في تعريف أدريان للتاريخ. فكرت في ابنه وهو يخشـــر وجهه داخل رف من المناديل المبطنة لكـــي يتفاداني. فكرت في امرأة تقلي البيـــض بطريقة لامبالية متهـــورة، لم تتضايق حين انكســـرت إحدى البيضات في المقلاة، ثم المرأة نفســـها لاحقا وهي تقوم بإيماءة أفقية سرية تحت نبتة وســـتارية أضاءتها أشعة الشـــمس. وفكرت في موجة عالية من الماء يضيئها القمر، تندفع إلى الأمام وتتلاشـــى في أعلى النهر، يلاحقها عصبة من الطلبة يصرخون وتتقاطع أضواء مشـــاعلهم في العتمة.

هناك تراكم. هناك مسؤولية. ووراءهما هناك عدم استقرار. هناك عدم استقرار عظيم.

المترجم في سطور

خالد مسعود شقير

● حاصل على درجة البكالوريس في اللغة الإنجليزية وآدابها من الجامعة الأردنية، الأردن، في العام ١٩٨٧، ودرجة الماجستير في الأدب الإنجليزي من الجامعة الأردنية في العام ١٩٩١، ودرجة الدكتوراه في أدب عصر النهضة والأدب المقارن من جامعة توليدو، أوهايو، بالولايات المتحدة الأمريكية في العام ١٩٩٩.

● عمل استاذا مشاركا في قسم اللغة الإنجليزية في جامعة مؤتة، الأردن، وشغل منصب رئيس القسم (٢٠٠٤ - ٢٠٠٥) ثم منصب نائب عميد كلية الآداب ورئيس قسم الدراسات العليا (٢٠٠٥ - ٢٠٠٧).

● يعمل منذ العام ٢٠٠٧ أستاذا مشاركا في قسم اللغة الإنجليزية، كلية التربية الأساسية، الهيئة العامة للتعليم التطبيقي، الكويت.

● له العديد من المقالات المنشورة في مجال عصر النهضة وأدب شكسبير والأدب المقارن.

● ترجم العديد من الكتب منها: «عن طريق الخداع» (عمان، ١٩٩١)، «سلسلة أطلس الجسم» (أربعة كتب، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، ٢٠٠٩)، «سلسلة الحقائق فقط» (أربعة كتب، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، ٢٠١٠)، كتاب «المعرفة» (مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، ٢٠١٢)، «دليل فليب للكواكب والنجوم» (مؤسسة الكويت للتقدم العلمي).

المراجع في سطور

د. حسين علي الديحاني

● حاصل على درجة البكالوريوس في اللغة الإنجليزية وآدابها من جامعة الدومينيكان، كولومبس، أوهايو، الولايات المتحدة الأمريكية العام ١٩٨٦.

● حاصل على درجة الماجستير في تدريس اللغة الإنجليزية من جامعة توليدو، أوهايو، الولايات المتحدة الأمريكية العام ١٩٩٣.

● حاصل على درجة الدكتوراه في الأدب الإنجليزي في القرن الثامن عشر من جامعة توليدو، أوهايو، الولايات المتحدة الأمريكية العام ٢٠٠٠.

● عمل أستاذا مساعدا في قسم اللغة الإنجليزية في كلية الدراسات التجارية، الهيئة العامة للتعليم التطبيقي والتدريب من العام ٢٠٠٠ حتى ٢٠٠٧.

● شغل منصب رئيس وحدة اللغة الإنجليزية في كلية الدراسات التكنولوجية من العام ٢٠٠٧ حتى ٢٠٠٩.

إصدارات قادمة

«ياسمينة.. وقصص أخرى»

تأليف: إيزابيل إبراهارت

تُرجمت من الفرنسية

ما صدر من هذه السلسلة

318	نون والقلم	تأليف : جلال آل أحمد
319	سيري ساميبجي	تأليف : تشاندرا سيخار كامبار
320	أيام بورمية	تأليف : جورج أورويل
321	ست وصايا للألفية القادمة	تأليف : ايتالو كالفينو
322	السكرتير الخصوصي	تأليف : ت. س. إليوت
323	قصص برازيلية	تأليف : مجموعة من القاصين البرازيليين
324	شذرات من خطاب في العشق	تأليف : رولان بارت
325	لون الماء	تأليف : جيمز ماكبرايد
326	وجهان لحواء	تأليف : أمريتا بريتام
327	المنزل ذو الشرفات السبع	تأليف : اليخاندرو كاسونا
328	من الأدب الباكستاني الحديث	تأليف مجموعة من القاصين الباكستانيين
329	مختارات من القصة التركية المعاصرة	تأليف : مجموعة من القاصين الأتراك
330	مسرحية محكمة العدل في بلخ	تأليف : بهرام بيضائي
331	مطبخ - خيالات ضوء القمر	تأليف : بنانا يوشيموتو
332	الطباخون الأشرار	تأليف : جونتر جراس
	الجرة المكسورة	تأليف : هاينرش فون كلايست
333	شمل تشابه ضائع	تأليف : أندريه شديد
334	حكايات الهنود الأمريكيين وأساطيرهم	تأليف : فلاديمير هلباتش
335	زهرة الصيف	تأليف : مجموعة من القاصين اليابانيين
336	طام - طام زنجي	تأليف : ليوبولد سيدار سنغور
337	البيروج	تأليف : نيكولو ماكيافللي
338	منزل النور	تأليف : جوهر مراد
339	كثبان النمل في السافانا	تأليف : تشنوا أشيبي
340	أناتول وجنون العظمة	تأليف: آرتور شنيتسلر
341	غرام ميتيا	تأليف: إيفان بونين
342	آرنجندن والحارس الليلي	تأليف: فيمي أوسوفيسان
343	ورقة في الرياح القارسة	تأليف: تنغ - هسنغ يي
344	مدرسة الدكتاتور	تأليف: إيريش كستنر
345	رسائل عيد الميلاد	تيد هيوز
346	حكايات وخرافات أفريقية (1) الطفل الملك	تأليف: سليمان جيغو ديوب
347	مسرحية عذراء أورليان	تأليف: فريدريش شيللر
348	حكايات وخرافات أفريقية (2)	تأليف: سليمان جيغو ديوب

ما صدر من هذه السلسلة

349	الأدغال والسهول العشبية تحكي القصة القصيرة الإسبانو أمريكية في القرن العشرين	تأليف: مجموعة من القاصين المتحدثين بالأسبانية
350	مسرحيتا: -1 محنة الأخ جيرو -2 تحوُّل الأخ جيرو	تأليف: وول سوينكا
351	روض الأدب (مختارات قصصية)	تأليف: أو. هنري
352	مسرحية «أنتيجون»	تأليف: ب. بريشت
353	أجمل حكايات الزن	تأليف: هنري برونل
354	يتيهما فن الهايكو	
	مسرحية «المقهى»	تأليف: لاوشه
355	مسرحيتا: -1 صناعة تاريخ -2 ترجمات	تأليف: برايان فرييل
356	رواية «الشباب»	تأليف: ج. م. كويتتزي
357	مختارات من الشعر المجري المعاصر (شعراء السبعينيات)	تأليف: مجموعة من الشعراء المجريين
358	مسرحيتا: -1 تلاميذ الخوف -2 الغزاة	تأليف: إيجون وولف
359	اسمي آرام (مجموعة قصصية)	تأليف: وليام ساروبان
360	حامل الإكليل (قصص مختارة)	تأليف: مجموعة من القاصين المتحدثين بالألمانية
361	الصُّورة (مسرحية)	تأليف: سيلافومير مروجيك
362	الأيام الخمسة الأخيرة لرسول (رواية)	تأليف: تحسين يوجل
363	سبع مسرحيات ذات فصل واحد (من بولند)	تأليف: إيرينيوش إيريدينسكي أندجي ماليشكا ستانيسلاف ليم (ستانيسواف) سواڤومير مروچيك
364	سبع نساء... سبع قصص	تأليف: مجموعة من القاصات الفارسيات
365	زمن الضحك (ملهاة خفيفة من ثلاثة فصول)	تأليف: نويل كاورد
366	بالأبيض على الأسود (رواية)	تأليف: رُوبين دايفيد غونساليس غاليغو
367	مسرحيتا: -1 سهرة في المقهى -2 موت ممثل مشهور	تأليف: تيان هان
368	إمرأة وحيدة «فروغ فرخزاد وأشعارها» سيرة حياة	تأليف: مايكل هلمان

ما صدر من هذه السلسلة

369	«الملاح» (مسرحية من الأدب البولندي)	تأليف: بيجي شانيافسكي
370	ليلة التنبؤ (رواية)	تأليف: بول أوستر
371	هذا الجيل المحظوظ (مسرحية)	تأليف: نويل كاورد
372	لا وجود لخصومات صغيرة	تأليف: أمادو همباطي با
373	الليلة التي أمضاها ثورو في السجن (مسرحية)	تأليف: جيروم لورنس وروبرت إي. لي
374	مختارات من الشعر الإيراني الحديث	تأليف: مجموعة من الشعراء الإيرانيين
375	العقرب وقصص أخرى (الجزء الأول)	تأليف: بول بولز
376	العقرب وقصص أخرى (الجزء الثاني)	تأليف: بول بولز
377	«الأسيرة» (مختارات من ديوان شعر)	تأليف: فروغ فرخزاد
378	شارع بريك لين (الجزء الأول)	تأليف: مونيكا علي
379	شارع بريك لين (الجزء الثاني)	تأليف: مونيكا علي
380	الطريق (رواية)	تأليف: كورماك مكارثي
381	مختارات من القصص القصيرة الأوزبكية	تأليف: مجموعة من الأدباء الأوزبك
382	عشيق الصين الشمالية (رواية)	تأليف: مارغريت دوراس
383	المجموعة القصصية الكاملة لإرنست همنغواي (الجزء الأول)	تأليف: إرنست همنغواي
384	المجموعة القصصية الكاملة لإرنست همنغواي (الجزء الثاني)	تأليف: إرنست همنغواي
385	المجموعة القصصية الكاملة لإرنست همنغواي (الجزء الثالث)	تأليف: إرنست همنغواي
386	النمر الأبيض (رواية)	تأليف: آرافيند أديغا
387	موطن الألم (رواية)	تأليف: دوبرافكا أوجاريسك
388	فيلا أماليا (رواية)	تأليف: باسكال كينيارد



الإحساس بالنهاية
(رواية)

نقدم للقارئ الكريم في هذا العدد رواية حازت جائزة «مان بوكر» العالمية لعام ٢٠١١ لمؤلفها الروائي الإنجليزي جوليان بارنز (ولد العام ١٩٤٦)، الذي حاز عدة جوائز عن رواياته.

تتمتع هذه الرواية بمزايا الأدب الكلاسيكي، كما تتحدث عن الإنسانية في القرن الواحد والعشرين، حيث تغوص الرواية في أحد الصراعات الإنسانية الخالدة بين حاضر الإنسان وماضيه وهيمنة الماضي على الحاضر، بحيث يصبح شبحا يطارد الشخصية الرئيسية وراوي القصة أنتوني ويستر. يحاول الراوي أن يتصالح مع ماض مشوه، ويبحث عن الخلاص من ندم على أحداث ماضية لا يستطيع تغييرها. وعلى ضوء هذا، تأخذنا الرواية إلى أحداث ماضية من حياة الراوي ليحاول أن يجد إجابات مقنعة لها، ومن هذه الأحداث وصول رسالة من والدة فيرونكا - حبيبة صباه السابقة - المتوفاة حديثا تترك له فيها إرثا يتألف من ٥٠٠ جنيه ووثيقتين، وعلى هذا الحدث غير المتوقع تنتهي رحلة بحث أنتوني والرواية باكتشافه شيئا غير متوقع مطلقا، وتنتهي رحلة قراءة الرواية بصدمة القارئ نفسه مما هو غير متوقع، وإحساسه بالحاجة إلى قراءة الرواية من جديد.

وفي النهاية، فإن الرواية تمثل تحديا من نوع آخر يتعلق بالأسلوب السردي المستخدم، وهو أسلوب تيار الوعي القائم على تدفق الأفكار، كما تحدث في رأس الراوي وامتزاج الذاكرة بالتجارب الحالية.

رقم الإيداع: ٢٠١٢/٣٠٦
ردمك: ٤-٣٦٤-٠-٩٩٩٠٦-٩٧٨